لـيـل شـكـسـبـيـري

روايــة

الطبـعـة الأولـــى
2020م- 1442هـ

ديـــوان العـــرب
للنشر و التـوزيــع

ملحـوظـــــــــة: حقوق الطبع جميعها محفوظة للمؤلف

عنـــوان الكتاب: ليل شكسبيري

اســـم المـؤلف: هدى إبراهيم أمون

التصنيف الأدبي: رواية

رقم الإيـــــداع: 16330 / 2020

الترقيـــم الدولي: 4 - 42 - 6830 - 977 – 978

تصميـم الغـلاف: د. محمد وجيه

التدقيـق اللغوي: هدى إبراهيم أمون

التنسيق الداخلي: د. محمد وجيه

رقـــم الطبعـة: الطبعة الأولى

المديـــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقـوق الطبـع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجـوز بأي صورة إعادة النشـر الكلـي أو الجزئـي، أو نسـخه أو تصـويره أو ترجمتـه أو الاقتبـاس منـه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

ليل شكسبيري

رواية

هدى إبراهيم أمون

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع

حقوق حلمك

إهداء

إلى من يجتهد لخلق السعادة في محيطه

ومن يدرك قيمة القراءة في حياتنا

إلى عائلتي

أخوتي

بيئتي

التي أحاطتني منذ نشأتي بالمفاهيم الأولية

لشغف المعرفة والاطّلاع

هدى

****

ليل شكسبيريّ
الفصل الأول

مدخل إلى الرواية

أحاط به جرف هاوية سحيقة من جانبٍ وأمسكتُ يدهُ من الجانبِ الآخر للنجاة.. قال:

"لن يسهل عليكِ إنقاذي..!"

أجبته:

"عندما نثق بمقدرتنا، لن يتمكن أحد من إضعافنا، وإنّني على ثقة بأنَّ من يستخرج ابتسامة البائس من لجّة الدموع، سيقوى على إخضاع المحن لنبله وسموّ خلقه، وهذا أنت.."

في زمن العولمة، بين ظلال الحداثة.. يسابق التخلف وقع أقدام الحضارة، لحجز مقعد له في الصفوف الأماميّة للأوهام والانتظار.. ولتكرار الأمس بعاداته كما هي بصفوها أو كدرها.."

وبرغم أنَّنا لم نكن جميعًا هناك في ساحات المعارك.. غير أنَّ أشباح الحروب زحفت في ليل غفلتنا وجهالتنا متسلقة أرواحنا ضمن مجتمعاتنا المسالمة.. نفثت سمّها في أجسادنا التّعبة، لتفرض حضورها وهيمنتها علينا

وجعلتنا نشعر بسطوتها وهي تدفع بهاماتنا إلى جوفِ بوتقة الحرب ولا تبيح لنا الحياد عنها قيد فكرة..

أوراقي معزوفة ترنّمتْ بعزفها الحياة على أوتارِ شراييني وأعصابي.. بعثرها الزمن على منضدة نهار لا يفنيه الوقت، وليل مدادها المسكون بالمخاوف، يتسلل من منافذ الحروف ومعارج أنّات الصوت، يتوغّل في أخاديد ذاكرة خيبات العمر، الممتدة عبر دربي المستقيم..

دفنتُ في أغوارها خذلاني وعثرات أحبتي، واتكأتْ فيها عباراتي الدافئة على حجارةٍ كساها الثلج في دربي الوعر، وضمن سطورها رُسِمَتْ ملامح خارطة قلبي ووطني.. بينما نمتْ أشجار زمني على ندوب جراحاتي القديمة..

وعلى شاطئها الرملي كثرتْ آثار حركات أقدامنا أصدقائي وأنا، مواليد تسعينيّات هذا العصر نحن.. وتحت وابل أمطار المآسي نشأنا.. عبر الصداقة رفعنا مظلّة المحبّة لتقينا الزمهرير المتدفّق من عاصفة اللاإنسانيّة التي بإمكانها تشتيت اتجاه آمالنا وسبل سعينا لحياة أفضل.. لم نستسلم لسطوة الإجحاف والفشل التي اجتاحت عالمنا..

عمل أحدنا في الموسيقى وآخر في النادي الرياضي والباقي في التعليم..

ضَفَرَتْ الحرب أرواح أُلفتنا، أثقلت مواجعنا وأذاقتنا مرارة فراق بعض الأحبّة.. ومنح الدّهر القلّة النادرة قدرًا من السعادة المنهوبة من موسم الحرب مع من يحبّ.

بعد معاناة مضنية، توهج في عالمي حبّه..

قال:

"تستبدُّ بي إشراقة صباحكِ يا له من صباحٍ (فيروزي) يسحب دثار غفوتي لأهرع إليكِ ونرتشف معًا قهوتنا.. التي كانت ذلك اليوم، قبل انهمار الألم (بمذاق نزاري):

أأنتَ الذي يا حبيبي نقلتَ

لبيضِ العصافير أخبارنا؟

فجاءتْ جموعًا جموعًا تدقُّ

مناقيرها الحمر شبّاكنا

وهل قلتَ للوردِ حتى تدلّى

يزركشُ بالنورِ جدراننا؟

سيفضحنا يا حبيبي العبير

فقد عرفَ الطيبُ ميعادنا

كانت تلك الموسيقى المرهفة تصدحُ من نافذتكِ.. يعجبني (نزار قباني) بأصواتِ قامات الطرب جميعًا، ولكن بصوت فيروز يُسحرني..

لأنَّني أتذكّرك..!

وكنت أوَّل من يصل إلى واحة أزهاركِ من الأصدقاء دائمًا.. بنشاطي الذي لا يعرف الحدود حين يتعلّق الأمر بلُقياكِ، إنَّ حبّك قد حرّر طاقاتي المخبّأة كلّها..!"

همستُ:

"أحبّك..!"

انبثق اعترافي ألقًا في عينيه:

"هل تعلم أنَّ مغزى ملامحكَ قد بات يمنح فصولي وأوقات يومي سماته..؟ من خلال حزنكَ ألمح الصيف يبكي.. وفرحكَ يرفعني فوق الأرض ويمنح أيّام الشتاء الباردة حرارة ابتسامتك..!

أصبحتُ أصف الطبيعة بلغتك.. بما يستخرج ما خفيَ في حناياها من أسماء عباقرة الزمن.. "يا لهذا النهار الشاعري بقربك.. كم هو (جبراني)..!"

اقترب وهمس بما يفوق ترجمة اللغات كلها لهمسات عشّاق الوجود جمالًا.

ترنيمة من الورقة الأولى

جلس (راني) على صخرة الذاكرة.. يستعيد نظرة الحبّ الأولى، وابتساماتها الواشية بالحبّ.. وكيف سافرت بلا وداع متجاهلة ما بنت معه من مدن الحبّ على شواطئ اشتياق.. تساءل عن ذلك الماضي وهل سيجعلها السفر تنساهُ وتنسى الوطن..؟!..

إنّه على يقين أنّ ما كان بينهما لا يمكن نسيانه، لأنّه الحبّ الذي يشعر بصدقه.. ولم يكن بنيانه على الرمال، لم يتوهّم الإحساس بوجوده.. ولم يزل يبحر شراعه في يمّ تلك المدن وتقف مرساته على شاطئ أمنيات حبّ وليد قطف برعمه وتوقّف نموّه.. لكنّه كان حقيقيًّا، لم يكن حكاية نسجها خيال بحار أضناه البحر، وعاش مع حوريته في جزر الوهم.. من نظرتها كانت تتشكّل ألحان كمانه.. حين بحث عنها في تلك الرحلة المدرسيّة وألفاها تحت شجرة السنديان، تداعب الأعشاب بأنامل الشرود.. وحين رأته أفصحتْ دهشتها عن أسرار الحبّ بفرحٍ غامرٍ يلوّن قلبه والفضاء حوله بنضارة السعادة.. وحين سافرت لم يتقبّل فكرة صارحه بها الأصدقاء: "لم يكن ما بينكما حبًّا، وهي لم تحمل في حقيبة سفرها سوى بعض الأقنعة الملوّنة التي ستحتاجها في عالم التشاوف الذي يناسبها.. !"

جاب حدائق الوطن يلاحق وميض الصدق في نظرات العشّاق.. ويتساءل هل للصدق قسمات محدَّدة تعلن عنها ملامحهم..؟!

وبقي على اعتقاده بأصالة حبّهما حين ردّ على خطاب الأصدقاء بانفعال:

"لم يكن ما بيننا حبًّا فحسب، بل حبًّا جنونيًّا.. وهي لن تبقى بعيدة.. سيعيدها حبّنا الحقيقي.. وأنا لن أملّ انتظارها..!

وامتنع (راني) عن التحدث مع أي فتاة تبدي إعجابها به أملًا بعودة (ياسمين).

ياسمين صديقتي التي كانت تحلم بأن يهبها الله شقيقة تملأ حياتها.. سألتني ذات يوم:

"(سيلا) هل تقبلين أن نعيش في صداقتنا كشقيقتين..؟"

انتابني إحساس الأخت الكبرى نحوها.. وشعرت أن الزمن جاد عليّ بالأخت المحبّة.. وسارعت بالإجابة:

"نعم أقبل.. يا لسعادتي بأخوّتك صديقتي..!"

خرج والدا (ياسمين) من المشفى، وحمل الوالد شقيقتها المولودة حديثًا.. وكانت (ياسمين) شابَّة صغيرة في بداية المرحلة الثانوية والابنة الوحيدة

لديهما والتي تعيش الرفاهية في حياتها، لكنَّها تحلم منذ سنوات بأن يرزقها الله بتلك الأخت.. وبقيت تنتظر حلمها الجميل إلى أن تحقّق..

شعرت الوالدة ببرودة الجوّ وتأمّلت الملامح الرقيقة لطفلتها بشغف أموميّ وخاطبت زوجها بهلع:

"أرجو أن تدثرها جيدًا يا عزيزي.. أخشى عليها من الرياح.. لا أريد أن تتعرّف على المرض في بداية أيّامها الأولى للحياة..!"

طمأنها قائلًا:

"لا تخافي هي بأمان من البرد في حضن والدها.. وكدنا نصل إلى العربة..!"

واستمرت الوالدة في مدّ ذراعها لتحجب طفلتها عن مداخل البرد.. وتقول:

"انظر من هذا الجانب، تحت الغطاء تظهر وجنتها الملساء الصغيرة.. أرجوك دثّرها جيّدًا فالرياح لا ترحم جسدها الطري..!"

استجاب الوالد للهفة الأمومة وأغلق منافذ الرياح عن الصغيرة إلّا من جزء يسير يسمح لها بالتنفس عبره..

شعرا بالأمان حين كادا يصلان إلى العربة التي ستقلّهم إلى المنزل.. وسبقت وصولهم طلقة ناريّة اخترقت أنسجة جسد الطفلة الغض واستقرت به..!

و وسط عويل الفاجعة ناجى الوالد طفلته:

"لقد تعلمنا كيف نحميكِ من الرّياح السماويّة..! لكن سامحينا يا ابنتي لم نتعلّم جيّدًا كيف نُبعد عنكِ ريح التخلف والعدوان والجهالة البشريّة..!"

وبدأت أولى زخّات الحزن المباغت توقظ نظرة جديدة للحياة في عيني (ياسمين).. وتبعها بوقت قصير رحيل والدها الذي ربَّما فارق الحياة على أثر موت ابنته..! التي اعتبرها فدته حين تلقّت الرصاصة وشهقت آخر أنفاسها وهي في حضنه، فلم يستطع الخروج من تلك الصدمة ومن حالة الاكتئاب الشديد التي أغرقته في أعماق الأسى..

عرّفت (ياسمين) الحزنِ الذي غسلت آلامه أفكارها حين قالت:

" الموت هو أحد الدروب الموازية لحياتنا ونجهل ملامح جماله أو بشاعته ومتى يحلو لدربنا الالتفاف بنا إليه.."

دثّرتها شرنقة الحزن لبعض الوقت وآنسنا قربها في مرحلة حزنها، جميعنا و(راني) الأثير لديها..

خطر بفكري ما خطّه (جبران خليل جبران) في (دمعة وابتسامة) الذي تركَ روحهُ فيه لتحاكي أرواحنا عبر الزمن:

"لو دريت يا حبيبي الحزين أنَّ الأرزاء التي أصبحتَ مغلوبها هي تلك القوّةُ التي تنير القلبَ وترفعُ النفسَ من دركاتِ الاستهزاء إلى درجاتِ الاعتبار

لقنعت بها إرثًا وبتأثيراتها مهذّبًا، وعلمتَ أنَّ الحياة سلسلةٌ ذات حلقات آخذة بعضها برقاب بعض، وأنَّ الحزنَ حلقةٌ ذهبيّةٌ تفصل بين الاستسلام لمآتي الحاضر والتعلل ببهجة الآتي كما يفصل الصبح بين النوم واليقظة..

والدموع التي تذرفها أيّها الحزين هي أعذب من ضحك المتناسي وأحلى من قهقهة المستهزئ.. تلك دموعٌ تغسل القلب من أدرانِ البغضِ وتُعلّم ذارفها كيف يُشارك منكسر القلب بشواعره.."

دوائرٌ هي الحياة وتدورُ بنا، تتجلى فيها أحاسيسنا.. يتّسعُ دوارها أو يضيقُ قدر اتساع آفاق الفرح أو الحزن في وقت ما من فجر أيّامنا.. ما أن تغرقها دموع الأسى حتى يعيد الزمن رسم ملامح منها جديدة تشعّ ببريق البهجة.. لكنَّ الأيّام لا ترضى أبدًا أن تبقى سجينة اللحظة..

في المآسي أو الفرح.. تترامى هنيهاتها على ضفاف الروح وتنتفض بأعصابنا التي تتأرجح على حدود شريان الحياة لتجعلنا نستفيق.

ترنيمة من الورقة الثانية

لم تعتد (زينة) الوقوف على أطلال الاختلاف السائد في المجتمع، وبدت كبطلة هاربة من عصر الحكاية.. ترنو لمفاهيم المحيط حولها بشفافية ينبوع مياه عذبة.. تفرعت أمامها الدروب وأحدها ذلك الدرب الذي سارت عليه والدتها، حين تحدّت التقاليد السائدة وسافرت للدراسة خارج البلاد، وعادت برفقة زوج تتفق معه إنسانيًّا وفكريًّا وعاطفيًّا ما عدا طائفيًّا.. ودفعت ثمن خيارها المزيد من الحنين والاشتياق والتلظّي بنار جفاء الأهل الأحبّة.. ونيران ذلك الجفاء ترهقنا، لأن كينونة إحساسنا نحوهم تملأ مساحات احترام ذواتنا ولا نقوى على حساب تفاصيل حياتنا بالتّجاهل التّام لوجودهم، ويحظى الألم بأعصابنا، ويعتصر شرايين قلوبنا، ليعذبنا بصراع يقوم بين العاطفة والفكر.. تتمكن والدة (زينة) من مقاومته.. وبدتْ بين الزحام كالعائمة في موجة متفرّدة وتوّاقة لثمرات الفكر الإنساني الذي يوحّد الناس في رحاب الوجود.. تسعى إلى بلوغ شاطئ الأمان بكبرياء نجمة تحاول منح هالة من النور لأحبّتها، في زمن غزته الغرابة المتأهبة لتحطيم كبرياء الشعوب النامية حين يومض بأفكار خلّاقة.. تجاهلتْ همهمة المخاوف في حلكة الظلام، واتّخذتْ الإقدام منارة لدربها الوعر.

وحين أنجبت زهرة حياتها (زينة) استنشقت عبير السلام من نظرة عينيها، وعاد الأهل لعالمها بعد الهجر، واتفقت أطراف الخلاف على حبّ (زينة) التي قرأت في طالع أيّامها مالم تطلعها عليه (عرّافة).. أيقنت أن الاستسلام للإخفاق هو الإذعان للفشل..

وباحتضان طفلتها، استنشقت عطر التمرّد على عواصف الزمن، شهدتْ زمن رضوخ الأعاصير لسلطان النقاء، تلك الأعاصير التي طالما لُقّنتْ حسن تفاديها..!

وهي التي علّمتها المحن أنَّ الإخلاص للألم سيمنحها ولوج دروب السعادة ومحطات الدفء المشرّفة.. وأنّ الأرض الظمأى للمطر، تكسوها الأشواك، ولكن زخّات المطر الأولى ستجعلها تمنحنا بعض النباتات ومع تتابع مواسم المطر ستتسع دائرة العطاء وتمنح الخير للبشريّة جمعاء..

لثمتْ الوالدة وجنة (زينة) فتوهج الفرح في قلب الطفلة، شعلة من أمان الجرأة التي شكّلت الدرب الذي ستعبره (زينة) في ريعان الشباب.. التي تجاهلت (الذراع الطويلة) وأبت الخضوع للجهالة أو الاستسلام للإحباط، فأشرق محيطها بحبّ (كريم) الذي تأمّلها كبحّار التقى بكنزه المفقود بعد

مصارعة مضنية مع الأمواج وعواصف الكآبة.. ورحّبت (زينة) بالحبّ في صباح ازدحم بالكتب الدراسيّة ورؤية الأصحاب..

في لحظة فقد وقرب، فراق والتياع.. صدح صوت (زينة) في الحبّ وهي تحدثني عن شخصٍ- لم أتصوّر يوماً أنّ شعورها القديم نحوه بالنفور، سيتحول لحالة حبّ مدهشة..!-:

"أودع قلبه لديّ ومضى إلى دربٍ يغزوه الضياء.. امتداده دائريّ ومحطة أوبته من أسفاره كلّها الأولى والأخيرة تمكثُ هنا في قلبي وبين أفياء اشتياقي، سيعودُ إلى ربوعِ عالمي، إنَّ ذكرياته تعيدُ مسح غبار التفاصيل الصغيرة من أجزاء يومي، وتنفخ في أجساد دقائق ذلك الزمن نغمة حبّ جديدة.. تمنحني وإيّاهُ فرصة للاستمرار في العيش معًا.. سأهرع كما كان يفعل هو بلهاثٍ محمومٍ لأرمّم ما انهار من عمر الغياب.. وأُثري أيّام الحبّ بمحاولة إتقان لغات الخلود الجديدة كلّها.. لنبقى معًا ما استمرّ نبضي بترتيل حروف اسمه الذي يُنظّم نبضات قلبي و منسوب أنفاسي..

لم يعد صوتي لي..! بل بات يجسّده أمامي، بهامته الشامخة والحنان المشرق نورًا من عينيه.. ولم يعد عطري لي.. بل يجعل صورته تمثلُ حاضرة في حدقاتي عبر شذاه.. أصبح (كريم) همسي وعبيري!"

لم يكن غيابه حالة تتقبلها (زينة) كأمر واقع يجعلها تخضع لقوانين البعد باستسلام وإذعان بل كان ذلك يحوّلها لنحّاتة مبدعة تحفر الزمن بإزميل الوقت وتُحدثُ ثُقوبًا في جدار الغياب إلى أن يعود.. استحوذ حبّها على حركة الطبيعة وألغى من فكرها أنَّهما يومًا ما سيقفان وجهًا لوجه أمام الفراق وسيتعذر اللقاء إلّا كأطياف الرؤى.

ترنيمة من الورقة الثالثة

في زمن الطفولة تعرّفتُ على (كريم) في منزل أحد الأقارب في الريف.. وكان اللقب السائد لهذا القريب هو (عاشق القبر) إذ كان يُمضي معظم وقته قرب قبر زوجته التي أحبَّها ولم يُمض الوقت معها طيلة الحياة.. كانت شابّة جميلة حين لاطفها قائلًا:

"هذا هو بيتي المتواضع ولكن بعد شهر العسل سأبدأ بجعله يليق بك.."

وراحت عجلة الزمن تدور به وهو في متاهة تحصيل الرزق والانشغال عنها بمجاهل الحياة.. اعتاد على عباراتها:

".. لماذا تأخرت.. وحيدة أنا في منزل غير مكتمل ولم تسعى لتحسينه.. يُضجرني الملل وبت أعلم أنّ شكواي لا تعنيك بشيء.. وكأنّك مجبول من الإسمنت والحجر فلا تبدو عليك المشاعر الرقيقة..!.. يئست منك، فقد مضى ربيع العمر بالحسرات، وأنت غائب أو مغيّب، يأخذك الخمر وسجائر التبغ إلى عالمٍ نجهلهُ..!"

لكنه وعدها أنَّه سيفتح صفحة جديدة لحياتهما معًا وسوف يبدأ بإعادة إعمار البيت إلى أن يتمّه.

سارع ذات يوم بطلب الرخام اللامع.. اختاره كأحلامها القديمة..

وراح يساعد العامل في بناء القبر لزوجته التي فارقت الحياة.. لم يعش معها كما كان يحلم..! فبات ملازمًا لقبرها، يُحضر طعام الإفطار الذي كانت تفضّله، ويحتسي القهوة مرّة المذاق التي كانت تعدّها وتقوم بطحنها يدويًّا .. ولا ينسى فنجانها الخاص.. وغدتْ كالإدمان حالة ندمه الدائمة تلك.. وتأنيبه المرير لذاته، إلى أن لقبه الناس بعاشق القبر.. وكان يرفض العودة للمنزل مهما حاول أولاده إقناعه بذلك.. ولكنَّه كان يمتثل لرغبة حفيدهُ الصغير (كريم) حين يقول له:

"جدي.. اشتقت لك، هيا لنجلس تحت دالية العنب.."

كنت أسافر مع والدي دائمًا إلى الريف حيث ألتقي (كريم).. اعتصرت طفولتنا عناقيد البراءة ونحن نطارد الفراشات الذهبية.. وخرج الصبح من ضحكاتنا الشقيّة أسراب طيور مرحة، حين كان يأتي مع والده لزيارتنا في المدينة حيث أسارع لجمع أقراني كي أعرّفهم بأخي (كريم) وكنت أخبرهم أنّه أخي لكنّه يعيش في الريف.. وكثيرًا ما تشاجرنا كالأشقّاء..

وأَحبّه أصدقائي ما عدا (زينة) التي لم تستلطفه في الطفولة وبادلهم المحبَّة ولم يكترث لمشاعر (زينة) نحوه .. وتبدّلت المراحل في عربة العمر من اللهو إلى الجدّ، حين بدأ الدراسة في المدينة.. وبات يطيلُ إقامته في منزلنا..

واتّضحت معالم أخوَّتنا بشكل جليّ حين بدأ يخصّني بقصص الحبّ أو تَوَهّم الحبّ التي كان يعيشها..

حين اجتاح عالمه إعصار الحبّ الأوّل، بتُّ أفتّش عنه في ملامحه ولا أجده..! سألته:

"هل يغيّر الحبّ هوّية أرواحنا؟!"

أجاب:

"لا.. وهل تغيّرتُ أنا..؟!"

ابتسمتُ.. ولم يستجب لابتسامتي..! وكان فيما مضى يقهقه حين أبتسم لترجمته البليغة للغة ابتسامتي..

قلتُ:

"نعم هذا ما ألمسه.. ألمحُ في صمتك فوضى معركة بين اثنين أحدهما أنتَ والآخر (كريم) الذي أعهده.. فما الذي يحدثُ في هذا الحبّ البائس؟!"

أطرقَ بحزنٍ ثم قال باضطرابٍ:

"لنخرج إلى الحديقة سأروي لك ما يقلقني.. وما يضنيني.. سئمت ذاتي..!"

بدأ حديثه:

"أنت تعلمين بالاختلاف الطائفي بيني وبينها.. وتدركين أنَّ أي اختلاف بين الناس مهما يكن لا أبالي به، قدر اهتمامي بمدى إنسانيَّة الإنسان..

مررتُ بوقتٍ عصيبٍ حين طلبتْ إنهاء علاقتها بي، لأنَّ والدها رآها معي وعرف بما بيننا من اختلاف.. وكم اجتهدت في العمل على إقناع أهلها بي وبفكري.. لكن عبثاً ما أحاول..! وهي امتثلت لأوامر أهلها ولم تشغلها محاولة فرض حبّنا على فكرهم.. علَّ هذا التحجّر يلين ويمنحنا الشعور بالأمان..

ما أدهشني أنّها كانت تنشدُ التغني بالإنسانيّة والإخاء والمساواة بين البشر.. وحين وضعها الدَّهر على المحكّ، بدتْ كلماتها تلك كقطع الجليد، حيث ذابتْ متحوّلة لبحيرة لا يمكن أن تنمو فيها الأسماك أو غيرها من الكائنات الحيّة.. وسيحولها الوقت لمستنقع آسنٍ مقرف..!

فماذا نفيدُ من فكرٍ يبقى مختبئًا في جوفِ الكلمات..؟!

لو يلمحهُ الوهج الرّهيف للضياء سيرتجف ويتلاشى كهبَّة ريح لا أكثر.."

شعرتُ بحزنهِ وغضبه.. لكنني تعاطفتُ مع الفتاة.. قلتُ:

"أحيانا يقسو علينا الواقع ويُغرق رؤوسنا في تربته الجافّة فتتساقط بذور أفكارنا التي طالما آمنّا بها.. لتنمو وتزهر لأناس يمتلكون مقدرة إقناع

محيطهم بفكرهم.. وهذا لعمري ليس بالأمر اليسير على النساء في مجتمعاتنا التي تعنى بالعادات أكثر مما يعنيها التعاطف الإنسانيّ..!"

ومضى بعض الوقت على (كريم) وهو يقاوم حالة الاضطراب والأسى.. ثم جاء القلب بحبّ كبيرٍ أدهشني.

ترنيمة من الورقة الرابعة

كعاصفة مشبعة بشذا الزهور.. لفّت بساط الوجود لتبيح لزهرة الحب الصادق بالتفتّح والإشراق في عيني (كريم) و(زينة) التي نسيت زمن الطفولة ومشاعرها السلبية نحوه في ذلك الوقت.. وشُغل (كريم) بحبّها وكأنَّه لم يعرف الحبّ يومًا..! ويصلح هنا ما فسّره علم النفس أنَّ البغض هو الوجه الآخر للحب، كما يكون الجنون الوجه الآخر للصحة العقلية.. وقد يحلُّ أحدهما مكان الآخر في وقتٍ ما..

استسلمتْ (زينة) لنظراته وكأنَّها تراه للمرّة الأولى في حياتها..!

ثمَّ هرعتْ تتعثّر بلهفتها إلى منزلي تبثّني شكوى اهتمام قريبي (كريم) بها ذاك الذي كانت تغادر مجلسنا حين حضوره.. وأنَّها الآن تُحلّق على أجنحة فرح غامض المصدر..! برغم أنَّها بعد تجربة حبّها الأوَّل لم تعد تؤمن بالحبّ..!

أطلعتني على سرّ حبّه بأغنية يشدو بها صوت (فيروز) لقصيدة (بدوي الجبل) "خالقة" التي أرسلها (كريم) كهمسة حبّ صارخة في فضائها.. يناجيها عبر حروفها الموحية بسموّ الإحساس:

"من نعمياتك لي ألف منوّعة

وكلّ واحدة دنيا من النورِ

رفعتني بجناحي قدرة وهوىً

لعالمٍ من رؤى عينيك مسحورِ

تعبُّ من حسنهِ عيني فإن سكرت

أغفت على سندسيّ من أساطيرِ

أخادعُ النوم إشفاقًا على حلمٍ

حانٍ على الشفة اللمياء مخمورِ

كأنَّ همسكِ في ريّاه وشوشة

دارَ النسيمُ بها بين الأزاهيرِ

تندى البراءة فيه فهو منسكبٌ

من لغو طفلٍ ومن تغريدِ عصفورِ

يا طفلة الروحِ حبّات القلوب فدى

ذنب لحسنكِ عند الله مغفورِ

عندي كنوز حنان لا نفادَ لها

أنهبتها كلّ مظلوم ومقهورِ

أعطي بذلة محرومٍ فوا لهفي

لسائلٍ يغدقُ النعماء منهورِ"

وتسلّلت هذه القصيدة تجوب نظرات محيطنا الصغير للصداقة.. واضطرّت (زينة) إلى الاعتراف بحبّها:

"ثمة خفايا في نظراته أربكت فكري... لم أدرك كنهها بعد..!

يغريني ما يختبئ في عينيه ويأسرني..

شعرتُ بذاتي أجوبُ منافي غريبة.. وفجأة ألفيتُ واحة يسود في ربوعها الأمان.. لم تكن تلك الواحة سواه..!

كلّ ما فيه يُشعرني أنَّ هذا الشوك حولي سيزول.. وأنَّ نسمة دافئة من حنانه، بإمكانها التغلّب على ريحِ حرب هوجاء تجمّد هيكلي.."

وكم تمنّيت لو يصدق إحساسنا بالأمان وتتغلب حالة الحبّ على بشاعة الحرب.. !

لتجسّدت أحلامنا في عالمنا المادي هذا تفاصيل حياة..

لكنَّنا لسنا من يحتوي الحبّ، هذا الملكوت الآسر، لنصنع عبره المعجزات..!

الحبّ هو الذي يحتوينا ويجعل من حياتنا وأعمالنا معجزة..!

ترنيمة من الورقة الخامسة

مبعثرة ذاكرتي وأوراقي فوضوية الارتصاف في مخيلتي، بدتْ لي تلك الأحداث الماضية في حالة صراع، وكأنَّ أشباحها تتسابق لبلوغ حاضري..

يرى عالم النفس (بيير داكو)..

أنَّ لكلّ شخص نوره الخاص الذي يستقبل الفضاء صورته.. ويرسل إلى زمننا اهتزازاتها القادمة من ماضٍ مندثر، ويصبح باستطاعتنا رؤية الأشباح لأشخاص من الماضي، ولكن لا يمكننا التواصل معهم..

اعتدتُ وأصدقائي على محطات للنقاش في ما نقرأ من الكتب بمكتبة صديقتنا (ياسمين).. والكتاب الذي راق لي حين وقع عليه اختيار (أنس) كان (علم النفس الجديد وطرقه المدهشة) والذي قدّمه لي بعد أن قرأ لنا مقتطفات -نفسيّة وجوديّة وعميقة أثارت إنسانيتنا وحرّضت أفكارنا- من فحوى الكتاب:

"إننا نموت لكي لا نعصي المجتمع.. يرضخ جسدنا للابتزاز في سبيل الاندثار والموت ونصبح عبيدًا للضغط الاجتماعي والثقافي.. وهناك كلمات أشدّ قسوة وإيلامًا من وقع المقصلة كقولهم:

"لقد مضى زمانه، يعيش الإنسان حاليًّا حتى سن ٨٥ إنَّك في مثل هذا العمر تحصل على نفقة حياة إضافيّة.. لقد بلغت هذا العمر هل ترغب بأخذ زمنك وزمن غيرك..! ويقول الأبناء عن ذويهم:

"إنَّهم من جيل آخر لا يفهمون شيئًا من هذا الزمن..

وغالبًا ينصاع الأهل لضغوط هذه القرارات الصبيانيّة وتنفعل أجسادهم وتتأثر، فعضويتنا تشكل كتلة واحدة يتحد فيها الذهني والفيزيولوجي، وما أجسادنا سوى انعكاس ما نحن إيّاه فهناك أجساد العدوانيين المنتصبة المتصلبة، والفزعين المتكورة، والخضوعين المتكوّمة، والمترددين والمخنثين المترنّحة، وأجساد الشقراوات المتموّجة، والسمراوات الأمومية.. والأجساد المحدودبة لثقل الدهر والهاربة والمنشرحة أو المكتئبة والفرحة.. النشيطة أو الخاملة.. والأجساد التي تقلّد موقف الأب أو الأمّ.. إنَّ جسدنا الذي يحتوي ويُظهر هذه "الأنا" هو السفير يُعرب عن كلّ شيء.."

ثم التفتَ (أنس) إليَّ بعد القراءة قائلاً:

"(سيلا) يا من نشب الخلاف بينك وبين الليل لسبب لا أحد يعرفه سوى الليل.. سيدهشك هذا الكتاب يا عاشقة الضياء.."

ويتوه بي الزمن..

وتستغرقني الدهشة في هذا التوهان الذي يُغرقني فيه (أنس) وأقوم بإصدار أحكامي المتناقضة حينًا والصافية بوضوح أحيانًا على صورته المتّهمة والتي تجعلني أنتظرُ الاعتراف بالحبّ أو بالذنب.. ! خلف قضبان الوقت المتلاشي وصمتي المجلجل يرتّلُ نغمات حبّه.

جاءت (زينة) ذات يوم وكنت أجوب ردهات الصباح، أروي الأزهار.. قامت هي بتحضير القهوة ودعتني إلى ارتشاف غصّاتي والإصغاء لها..

باحت عمَّا اعتراها من شجون حبّها الأوّل لمن خذلها ودفعها إلى عدم الإيمان بالحبّ.. وانسابت مواجع بوحها عبرات قلبٍ كليم..

لم يكن مرور (فارس) في حياتها مرور العابرين، بل هو من توهّمتْ أنَّه حبيب أحلامها، وأنّ العسل في عينيه سيمنح المذاق الحلو لروح أيّامها، حيث نثر في عالمها قصائد حبّه التي روتْ براعم الأزهار في نبضاتها الظامئة للحب.

أحضرتُ لها الماء وسألتها:

"أين (فارس) منكِ الآن ؟"

أجابت كمن يهذي:

"لقد قامت بسحبه تلك "الذراع الطويلة" إلى الخلف، وحين التفتُّ إليه لأحثّه على المقاومة.. تحوّلت أحزاني هتونًا، لأنّني رأيت الاستسلام يسيطر على نظراته ويحتلُّ ذلك العنفوان الشامخ في عينيه ويحوّله إلى انكسار مقيت، وذلك الحب الشاعري الرقيق إلى انهزام الجبناء.. وما كان منه سوى جرّ أذيال خنوعه والرحيل".

لم تكترث لكأس الماء أو لفنجان قهوتها..! سألتها:

"ولمن تكون تلك الذراع الطويلة..؟!

وضعت رأسها بين يديها و بدأت باسترجاع ما مضى...

حين كانتْ طفلة شقراء في الثامنة من العمر.. وقفتْ وحيدة أمام مفترق لعدة طرق، وضوء الشمس يشعُّ من ضفائرها وعبراتها وهي تشعرُ بالتوهان عن دربِ المدرسة حين اختفت ابنة الجيران عن ناظريها لتأخرهما عن موعد الدوام المدرسي..

فجأة امتدت إليها (ذراع طويلة) أوصلتها إلى المدرسة، عرف منها صاحب الذراع اسمها (زينة) وعرّفها على اسمه (نبيل).. وقبل دخولها إلى المدرسة ألقت عليه نظرة شكر وامتنان، حملَ (نبيل) تلك النظرة في خياله نواة

فكرة تعدهُ بالحبّ.. وراحَ يرسل مجسّاته على دروب حياتها باهتمام العاشق إلى أن عانقها الصبا، واحتضنتها الجامعة حيث تعرّفت على (فارس) الذي بقي في ذاكرتها زمنًا متّكئًا على جذع شجيرة الحبّ، يرسل لعينيها وميض الفصول المتآلفة.. وأخفت رسائل نظراته عن الجميع..

فالبعض يخشى على الحبّ من العلنيّة والضياء ويلجأ إلى حفظ هواه بين طيّات الكتمان، خشية التطفّل عليه.

وربّما كان الحياء ما جعلها تخفي اهتمامها بفارس عن الأعين..

وحين التقت به انسابت كلماته موسيقى لم تلثم ثغر الوجود بعد.. ورفرفت الساعات والأيّام في فضاء الحبّ، وحدهما والسماء الزرقاء وأزهار الأقحوان في تلك الجغرافيا من الوجود.. وإذ بنظرةٍ ثاقبةٍ تسلّط حقدها عليهما، وذراع (طويلة) تحاول الإحاطة بذلك الإحساس الذي يموج بهما.. واستطالت تلك الذراع كثيرًا وازدادت مجسّاتها خطرًا، وأضحت تعتقلُ أخبار (زينة) كلّها عبر (سراب) تلك الفتاة الساذجة التي أحبت (نبيل) الذي أدرك "مازوخيتها" ورضوخها وهو (السادي) مختل الإحساس، وبرز ذلك في أحكامه القاسية عليها ليس بدنيًّا بل عاطفيًّا، حين حاول برداء

قساوته إخفاء قلقه النفسي واضطرابه وحالة هلعه وذلك بانتقاص مكانتها كإنسانة وتحقيرها وخذل آمالها والاستمتاع بخيباتها وانكسارها..

تقرّبت (سراب) من (زينة) و روت لها قصتها مع (نبيل) الذي كان حبيب صديقتها وفارس أحلامها.. أمضت أوقاتها تتأمّل في عالم حبّهما هو وحبيبته التي كانت صديقتها المقرّبة، حيث فتحت لها تلك الصديقة جميع سراديب حبّها السرّية، وترجمت لها مفردات اللغة الخاصة بهذا الحب، إلى أن أصبحت (سراب) تخترق نظرات صديقتها لتعبّر للحبيب عن مدى لهفتها لبريق الودّ المطلّ من عينيه وامتزج إحساسها بلون عينيه علّها تمنعه من التعبير عن الحبّ لصديقتها تلك، وقفت في منتصف علاقتهما لتمدّ يد الفرقة حاجز بعد بينهما، ولتمنحه الإحساس المثير الذي يرسل إليه خفايا لهفتها المكبوتة.. وأمضت ليلتها مع الأحلام تتقاسم زاد الحب مع دفء نظراته.. وكانت حين تشارك محبوبته الجلوس على مقعد دردشة، تسألها عما يضنيها في الحبّ، ليدور حوله الحديث، ولتصبح أحاسيسها الدفينة كشرطيّ المرور الذي يوجّه حركة سير الحوار، وزعيم عصابة لصوص يختبئ خلف السرقات دون الإعلان عن هويته.. وحين تصادفه وحيدًا كانت تطلُّ من عينيها تلك العاشقة الهائمة وتبوحُ له عمّا يعتريها

من هُيام.. وبدأ يحاكي ما يجيشُ في أعماقها من مشاعر.. وأوشك ميله إليها بالإفصاح عن ذاته، ولاح عهد انجذابه إليها، كما بدأ ظلّ فراقه لحبيبته يُفصحُ عن وجوده، وهو يُمسك بيدها بتوق يُعلنُ عن إخراج الثعلب من وكرِ التجاهل المراوغ.. وأمامَ فنجان قهوة بارد، روتْ لها صديقتها عن تغيُّر (نبيل) الحبيب الذي نقشت اسمه على صباحاتها وأماسيها والذي أعلن لها عن انقضاء عهدهما معًا.. واسترسلت الصديقة بالبوح الحزين.. الذي توهّج في عيني (سراب) قناديل فرح، وأدركت أنَّ مارد الحبّ العظيم قد استسلم للحظة الفراق الضئيلة، كجرعة سمّ صغيرة قاتلة.. وجاء (نبيل) يطرقُ باب حياتها ويمسكُ بخيوط استسلامها لحبّه الطاغي.. وعَبَرتْ رياح الأماني تموجُ بلهيبِ شمعة الحب المنهوبة من أشلاء سعادة تلك الصديقة البائسة، التي هالتها صدمة الخيانة الثنائية لأقرب الأحبّة.. وفي لهيب الخيانة اشتعلت الذكريات وتناثرت انفعالات عالمها كأطيار الجحيم، وراحت تقتات على أعصاب (سراب) التي لم تستطع نسيان قصّة حبّ الأمس التي تعرف تفاصيلها كلها.. وتحترق بلظاها، كلما لمع بريق اللهفة في نظرات (نبيل) الذي أدخلها في دنيا أعماله المشبوهة وهو يستعرض سطوته عليها بذراعه (الطويلة) وحبال مكائده.. وراح يستغلّ حبّها لمآربه الشخصيّة..

واستطاع توجيه فكرها لإرادته بسهولة.. فمن يشعرُ بالتسلّط ولديه أَنَفَة النفوذ ويمتلكُ القلب، سيقوى على العبث بالعقل بيدِ خبثه.. وكانت (زينة) أحد أهدافه الهامّة..

جالت (سراب) عالم (زينة) الخاص.. وألقت بشباك الصداقة عليها، نالت عطفها ومؤازرتها بما استشفّته (زينة) من قصّة حبّ (سراب) التي وجدت في (زينة) حمامة سلام بريشٍ إنسانيّ.. لكنَّ (زينة) أدركت محنة (سراب) ومدى جهالتها.. وبدأت بتنويرها، ما جعل (نبيل) يبرز وحشيته المستترة.. فهو لا يرغب بجرعات التوعية التي تصدر من (زينة) وتبرعم أفكارًا خضراء تغني حقل (سراب) المجدب في رأسها..

وأشدّ ما يغضب السادي المتسلط أن تصبح أنثاه الساذجة ذكيّة بتمرّدها على الظلم ومقدرتها على اتّخاذ القرارات الخاصة..

سارتْ (زينة) برفقةِ (سراب) ذات يوم، وقام (نبيل) باصطناع هذه المصادفة.. وقف في منتصف طريقهما وكادت نظراته تلتهم (زينة) التي استغاث صمتها بسراب تلك البلهاء العاشقة التي حرّكت بصرها بينهما بيدِ الشك وقالت:

"هل من معرفة سابقة بينكما..؟!"

وكانت (زينة) قد نسيت ملامح ذلك الفتى على درب المدرسة عبر الزمن..

أجاب (نبيل) وثغره يفترّ عن ابتسامة ماكرة :

"نعم ومنذ زمن.."

دُهشت (زينة) وقالت:

"لا أذكر أنَّني عرفتك يومًا في أزمنتي كلّها..!"

وكادَ أن يتشظّى ذلك الغضب المخفي، الذي تحوَّل إلى بركان كامن جعله يعقد العزم على إحراق أفراح (زينة) كلّها.. وبدأت ذراعه (الطويلة) بالالتفاف حول (فارس) الذي تبادله (زينة) الحبّ لكنّ الخوف قد جمّد مشاعره وضغط عليها لدرجة الاختناق وراح يذعن لأمر التَّهرب من دروب هواها باستسلام الجبناء واختفاء الضعفاء الصغار في جحورهم.

وغرقت (زينة) على مقعد كآبة وحيدة في حديقة الجامعة واتَّخذت موقفًا سلبيًّا من الحبّ وهي تلمح أشواك اللاأمان تتنامى حولها.. وفجأة تحيط بها أشعّة مليئة بالحنان تصدر من عيني (كريم) ذلك الطفل القديم الذي لم ترغب برؤيته يومًا.. لكنَّها شعرت بأُلفةِ من كانت تجري تائهة في منفى ووصلت فجأة إلى مشارف الوطن.. ولم ترغب أن يُبعد نظراته الدافئة عنها، رغبت أن يستمر هذا التوهج للأمان في احتضان ملامحها في عينيه.

لكن اضطرابها في محاولة كتمان شعورها بالحبّ نحو (كريم) قد أصابني بالدّهشة حين أطلعتني على اعترافاتها التي بدت من خلالها غارقة في الحبّ حتى آخر رمق للنبض.. خالفت بذلك ما كنت ألاحظه والأصدقاء سابقًا في علاقتها مع (كريم) الذي اعتقدنا أنَّه وحده المحبّ العاشق المجنون وهي ترفرف مشاعرها بسعادة حوله دون أن يبدو عليها الغرق في يمّ حبّه الجنوني العظيم..!

ظننتُ أنَّها تهوى حبَّه الشغوف بها، الذي يسمو بمنزلتها عن مستوى البشر، وتضنُّ عليه بحبّها غرورًا.. فلم أعهدها إلّا وهي في حالة التجافي أمام هفواته وهو يتعثر في أشلاء قلبه بملاحقة دروبها كي يرضيها وتبوء محاولاته بالفشل حين تلوّح له براية الفراق وتغرقه في بحرٍ من الغموض.. وتحتاج إلى صفو الزمان لتصفو..!

أمّا هو فكم أرهقه وصعب عليه فراقها..!

وكانت تغرق في أحزان الوجود حين يعاتبها على اقتراف ذنب ما وتترجم معاتبته بالمنحى الذي يبيح لأمطار الهموم بالهطولِ على عالمه، لأنَّها كانت تجوب الفيافي الشاسعة البعد في المعنى الغريب عمّا يعنيه (كريم) من العتاب..

وكان يُشعرهُ غيابها بغربة نفسية عن محيطه والوجود.. إلى أن يشعّ في واقعه نورها من جديد، فيعود إليها بفرحٍ يعادل أفراح عشاق الوجود، يبدو جليًّا في عينيه، حين تمنحهُ ابتسامة صغيرة مشرقة بالودّ الذي يُنيرُ محيّاها ومحيطه..

وكأنَّه كان يعلم أنّ تراكم حمم ذكريات حبّه العظيم.. ستتفجر في حنايا وجدانها ذات يوم بركانًا من الوفاء في حبّ لا يزول..!.

الفصل الثاني

صاغت لنا صداقتنا كوننا الخاص وملاذنا الآمن منذ عهد الطفولة وإلى الآن ومازالت ذكريات ما مضى تعتصر القلب بتفاصيل ما أصابنا من سهام الحياة وأشواكها..

وعَبَرَ قطار الزمن مراحل عدّة.. أسفرت محطاته عن تبدّلات في حياتنا أزهرت على شجيرات زمننا.. وتفجرت على أوراقي.. بما أثار الدّهشة لدى طفلة أعماقي..!

عُرف (كريم) في زمن الطفولة والمراهقة بمشاكساته.. حيث كان يتمسك بالأشياء لخلق حالة من الصراع مع أيّ فتى من أقرانه لكي يحظى بالنصر عليه.. وكان يزهو بنفسه ساخرًا ضاحكًا ويقول:

"هل يعني هذا أنَّني أناني.. ؟! وهل ترون أنَّني الوحيد الذي يحبُّ ذاته وأنتم تمقتون ذواتكم؟! المهم لديّ أنَّني وبطريقة تُقنعني أنتصرُ دائمًا يا أصدقائي اللطفاء.. وأتمنّى منكم عدم إهانة شعوري بالسعادة..!"-

وفي عهد الشباب حين ألقى الحبّ به في بوتقته.. واكتوى بناره .. بدأ يهتمّ بعلم الطاقة وتأثيراته السلبية والإيجابية على حياتنا.. ومع مرور الزمن برع في حلّ مشاكلنا التي بتنا نبثّها له ونُطلعه على إحباطاتنا وخيباتنا وما نرتاب من عدم تحقّقه من أمنياتنا.

وبدأ تعلّقه المعلن بأناه يتقوَّم تدريجيّاً.. وأصبح سخيّاً متسامحاً مع الأصدقاء والوطن والوجود، حين غمرت المحبة كيانه..!

قد يكون الحبّ صاحب الفضل الكبير بذلك التحوّل السامي..!

وربما (زينة) تلك الشخصيّة الانفعالية المثالية التي حرّضت أعماقه ليُبرز أوج ما يكمن في روحه من جمال أعلنته ثورته الانقلابيَّة على ذاته..!

أو لعلم الطاقة الذي يحتوي الحبّ في جوهره..!

الاحتمالات كلّها تقودنا إلى الحبّ الذي تجتاح خصاله تلك الحالات حين يهيمن على مستقبل آمالنا، ويصهل جبروته في دروب أحاسيسنا المرهفة.. ويروّض خطواتنا أثناء تشذيب أشواكنا، بقوّته العظمى تلك التي بإمكانها خلق الثورة الداخلية الخاصة بكلّ فرد منّا والتي تجري أحداثها في خلجات وجداننا.. إلى أن يتحقّق النصر لقوى على حساب قوى تتصارع في أعماقنا دون أن يشعر بنا الوجود..

ذلك الحب السامي المطلق للأحبة ولأرض الوطن.. للعمل، وما يتضمَّنه من أسرار وخفايا إنسانيّتنا التي تحقّق آمالنا العظيمة من توقّد الحبّ الحيّ الذي لا يفنى.

ترنيمة من الورقة السادسة

حين شعر (كريم) بصقيع التجافي وهو ينهال على عالمه بقسوة.. ويعصف بتفرعات أعصابه، تراقصت نبرات صوته ليس طربًا بل من الألم:

"في ذلك اليوم الصيفي، هبّت النسائم اللطيفة.. قرب البحر حيث التقينا على حنق يعتريني فغاب الحب عن بصيرتي.. وأعترف أنني في ذلك الوقت قد تفوهت بحماقات، حوّلت لهفة اللقاء لشهقات دموع.. وبدلًا من انحنائي لأقبّلها جثوت لأجفف عبراتها.. كنت قد وعدتها بتصوير منزلنا الريفي ودالية العنب وعناقيدها التي تتدلى وتنتظر قدومها لتقبل ثغرها.. وشجرة الياسمين التي تمتد على سور المنزل وتلتفّ حول شراييني ليضخّ دمي عطرها، الذي يضوع في خافقي كلما عبرت في خاطري كلماتها المرهفة..

والآن أُفكّر كيف سأعود إلى الريف ووجه المدينة يبكي في قلبي..؟! شوارعها خاوية لا يطلّ منها على وحشة سفري سوى شبح الفراق.. هي حزينة وأنا المُلام..

هل سيترفّق بأحزاني ذلك الدرب الريفي المتعرج الذي لمّا يزل بانتظار خطواتها الرشيقة وتمايُل خصرها الناحل..؟

يا إلهي.. كيف أقتنع بأنّها فارقتني..؟!

أين إيماني بهذه المقولة العظيمة:

"كلّ متوقع آتٍ فتوقع ما هو خير"..؟!

على ما يبدو أنَّ توقعي للكدر القادم قد فاق حدود تفاؤلي وزاد من كآبتي ومن شعوري باليأس..

لقد غزاني الألم وتمكّن من الاستيلاء على إدراكاتي المكتسبة وأعادني إلى عهود الإحباط الذي طالما قاومته بسلوك بغيض..! وهاقد عاد ليبسط نفوذه عليّ من جديد.. ويعمل بذلك على إرهاق عقلي وإشعال جنوني واضطراب أفكاري ما جعل تحضّري كلّه يحيد عن دربي وأعود إلى عهود الغباء..!

أصعب الآلام تتجسد حين ينهالُ الإنسان بسوط ضميره على ذاته يجلدها بقسوة..!

كانت ذلك الوقت تستمع إليّ وملامحها تشي بإحساسها بالخيبة..! وكم كنت مثقلاً بأنانيتي وغروري..! استمرَّت كلماتي الرعناء بتدفقها الأهوج إلى أن انحدرتْ بي نحو الفراق..!

ألقت بي حركة يدها في لهيبٍ أحرق أجزاء منّي عديدة.. حين رَفَعَتها وقالت: "الوداع (كريم).. لا يمكننا العيش معاً..!"

هل يُعقل أن أتلقّى حكمها عليَّ بإحراق أمنياتي.. وحبّها الطاغي يسلب كياني..؟!

هل هذا ما أمثّله في نظر من أحببتها..! مجرّد رجل يسهل فراقه ويمكن استبداله بآخر..!

هكذا ببساطة..؟!"

(كريم) أنت لا تعلم أنَّها لن تستبدلك بآخر مهما طال الفراق.. لأنَّها ستعيش معك خارج الزمن.. وستبيح لدفقات الوقت بالانزلاق من يديها غير معترفة باحتراق حقل أزهار الحبّ وانقضاء زمنه لأنَّه لم يزل بنضارته وألقه في خيالها الخصيب..!

ترنيمة من الورقة السابعة

خلال اجتياح الرؤى لواقعي، عبرَ تأمّلي لعالم المحبّة.. كنت أرنو لشجرة شامخة، تمتد فروعها إلى السماء.. تراءت لي تلك العاشقة حيث كانت تعنى ببساتين الورد والسنابل التي غرساها معًا هي ومن تحبّ.. وأصبحتْ في بُعده تُشغل حنينها بمراقبة نمو الغراس الغضّة.. وتضيء بالحبّ ثنايا الأرض من حولها، لعلّها تتمكن من حمايتها، فلا يقربها الأذى أو الظمأ.. لاطفت السنابل والأزهار بعذوبة، قلّمت الأشواك وحاولت صنع الخلود لتلك الغراس الفتيّة، التي تصنع جمال حاضرها في لوحات من سحر تكوين الوطن، وقد روتها برهيف إحساسها، وازدان بها ملقى الأحبّة تحت تلك الشجرة السامقة.. وكانت تنتظر قدومه، لتروي له حكايات الانتظار والورد.. ويباغتها قدومهُ مع الأنسام..!

يبوح لها بما كابده من جحيم البعد، ويغدق من نعيم الحبّ أشواقه .. احتضنته في مقلتيها واحتواها في حضن هُيامه.. وفجأة تناهى إلى أسماعهما أصوات همهمات مريبة و زعيق وصفير، وماهي إلّا تراكمات الوقت، حتى امتلأ الفضاء حولهما بالضجيج، وداهمت عالمهما الآمن فجأة أسراب الطيور المشوّهة.. بسلوكها الوحشي، وراحت تصفر بلغة غريبة.. دعته إلى فراق

حبيبته، كما دعتها إلى فراقه، ونعتتها له بما يثير البغض بينهما.. لكنّهما أبيا الانفصال.. وتحوَّل عناقهما لرقصة حالمة..

استشاط غضب طيور الشرّ، التي انهالت على جسديهما بمناقيرها المفترسة.. الأمر الذي استفز الشجرة فهبّت أغصانها تمدّ فروعها باندفاع هائل لحماية العاشقين وعالمهما الهانئ.. بدا وكأن عاصفة نارية قد تصاعدت من نسغها لمقاومة تلك الطيور المتوحشة.. والتي فرّت هاربة تاركة خلفها حطام الأغصان والأزهار وأنّات الأحبَّة.. ثمَّ عادت نسمات الأمان تلوّح في الأفياء.. نهضا من جراحهما وتجوّلا في ربوع موطن الحب المتواري في أحضان الشجرة الشامخة، وكانت الدماء تنزف من مواضع عدّة يرافقها الألم على امتداد الأجساد والأنفس، ندّت عنها صرخة قهر، حين رأت السنابل كسيرة، والأزهار مبتورة الفروع، وانهمرت عبراتها بألم، هي التي لم تبكها جراحها النازفة.. أخبرته كم كانت ترغب أن يرى تلك السنابل وهي في غاية النضارة تحاكي الأزهار في بهاء يسرُّ القلب والروح.. شاركها الأسى وغمرها بحنانه، وطمأنها بعودة الجمال واستعادة عهد الورد والسنابل..

توالت الأحلام الليلية المرهقة تقضّ مضجعي، فأستيقظ مكتئبة وأبحث عن أوراقي البيضاء لأبثّها تفاصيل خاطري وأرتشف قهوتي الصباحية.. وتبدأ الموسيقى في تهذيب أصوات المحيط حولي بالإصغاء لنغمات (فيروزيَّة) الدفء:

"أيُّ هذا القلب كيف لنا
هربٌ من خطوه الملَلُ
أيدوم الحبُّ تسألني
حلوة جُنَّت بها السبلُ
أيظلُّ الروض مبتسمًا
ويطول البوح والخجلُ
وأنا لا علمَ لي وغدي
كلَّ يومٍ صار يُرتحل
هاتِ لي عمري فأجعله
طائرًا في الأرض ينتقل
أنا في البعدِ أغنية
تأخذُ الدنيا وترتحلُ"

أسكتت (زينة) صوت الموسيقى وهي تبثني ما عاتبت به (كريم) وبالانفعال ذاته:

" ليس هذا ما رجوته من حبّنا..! أُدركُ أنَّك لم تتصوّر أنّ للكلمة الجارحة وقعها المدمّر في نفسي..

لا أريد أن يغيّبني سحاب غضبك عن عينيك، فتنسى للحظة أنَّك تخاطبني..!

تأمّلْ ملامحي جيّدًا.. انظر إليَّ أنا حبيبتك تلك التي انتظرتَ قدومها ذات يوم وسمح اشتياقك للثلج بالانهمار على رأسك وأهدابك دون الشعور بالبرد..! وغمر بياضه شعرك ووجهك بنثراته الدقيقة..

أنا صديقة دروب الأشجار والورد وطريق النحل ومقاعد الحديقة..

ومن أقسمتَ لها أنّ سعادتها وأفراحها أهمّ أمنياتك..

ولستُ منفضة لسجائر انفعالاتك..! فإمّا أن ألمس الحبّ في حالاتك كلّها.. أو أن تدعني وماضي أحلامي الوردية بسلام وتحمل كلماتك القاسية وتبتعد عن عالمي..!"

(زينة) يا صديقتي.. لو كنت تعلمين أنَّ العهد الجميل بينكما كلّما ذوتْ أزهاره واعتراه الجفاف، بشروخ عميقة الأسى.. سيعود من تلقاء ذاته،

ليُجدّد بالحبّ إعمار موطنه و يُزهر بما يجعله أبهى ممّا مضى.. لما سمحت للغضب أن يفرقكما للحظة..!

ترنيمة من الورقة الثامنة

نعتقد أحيانًا أنّ النهايات بمظهرها الواقعي قد حسمت الأمر الذي انقضى.. لكنَّنا نكتشف لاحقًا أنَّ بعض العلاقات الإنسانية تتجاوز بديمومتها قوانين البشر والبشرية جمعاء..!

لقد تجاوز بقاء والدة (راني) في حياته حياتها..

لم يكن صديقي (راني) يهوى اللعب كسائر الأطفال في ماضي شقاوتنا البريء بل بدا مرهف الإحساس، تجذبه الموسيقى لعالمها.. وكان لوالدته (سهى "عازفة الكمان") الدور الأكبر في هوسه بهذا الفن.. وكان من عادته الاستمتاع في الإسهاب بالحديث عن الموسيقى وعالمها الجميل.. وعمّا يلفت نظره في عالمنا من أحداث تاريخيّة أو حديثة فنيّة وثقافيّة تُعلي من شأن الموسيقى وأهميّتها في تطور الشعوب.. ثمَّ حوّلته أحداث الحياة القاسية لشابّ صامت كتوم وكثير الشرود.. وموسيقيّ يعزف بحزن كسير.. يتقاطر الألم المبدع من موسيقاه الشجيّة ويجذب شحناتنا العاطفيّة للغرق في بحر أحزانه طواعية.. بشكل تلقائي..!

وتنهمر دموعنا بلامبالاة لنظرات أناس محيطنا الاجتماعي المترقّبة لهفواتنا، أو بعنفواننا الذي يأبى انصياعنا لدموع عواطفنا..

وتجعلنا ألحانه أسرى حالته برغم تهكّم البعض على انسياق مشاعرنا الرقيقة مع نغماته..

أمّا (أنس) فلم يهوى العزف على آلة موسيقية برغم محاولة والدته (عازفة البيانو) تعليمه.. والذي كان يبتعد كلّ البعد عن حركات العنف إلى أن نعته الأصدقاء يوماً بلقب (الضعيف) وكم كره هذا اللقب.. وشكى لي همّه بألم والدمع يتكاثف في عينيه وهو يحدّثني ذات يوم، ثمّ يصمّم بعد شكواه تلك على المقاومة لتحقيق أحلامه.. عاملاً برؤية عالم النفس (بيير داكو) من حيث لا يدري وهي:

(لنرعَ أحلامنا) ومن لا يحلم فهو ميّت.. لأنّ الحلم الذي نهمله يقتل الجزء المرتبط به من النفس..

ويشير الحلم إلى الهدف، ولتحقيقه يجب أن يتوفّر لدى المرء صيانة جيّدة للخيال والإحساس..

وتابع (أنس) الدخول في سباق القفز من المرتفعات الذي اعتادوا من خلاله على تقييم الشجاع والأكثر شجاعة وعانى من تكرار حالات الإخفاق..!

ولفتني حاله حين فشل للمرّة الثانية والثالثة في ذلك الوقت، بما ملك من مقدرة عظيمة على تخطّي الخيبات وكبح جماح الرَّغبة الشديدة بالبكاء..

والتي أفصح عنها احمرار وجهه والبريق الملتهب المطلّ من عينيه وهو يحدّق بنا فردًا فردًا لقراءة ملامحنا وانطباعنا حول شجاعته..!

وبمرور الزمن تمكّن من ترميم ذاته بتحقيق هدفه.. فلم يرحمه الأصدقاء حين ضعفه، بل زادوا من معاناته.. وتحوَّلت رغبته إلى غاية شحنت إرادته بالعنفوان.. وبدا لي أنَّه يدرك وبثقة لا أعلم كنهها بوجود مكامن قوة بطوليّة في أعماقه.. وسيتمكن عبرها من خلق (أنس) آخر يُرضي عقله ويرفع عبره هامته.. فاستمر بتكرار الاشتراك في ذلك السباق إلى أن نال الفوز على الجميع وحطّم أرقامهم القياسيَّة واستطاع استبدال نظرتهم عنه إلى (صاحب الروح التي لا تهاب الموت) وأصبح المدافع الأول عن جميع الأصدقاء ولو تطلب الأمر مجازفة أو مغامرة.. وأصبح يُعدّ بيننا ذلك الشخص المستعد لحماية أحدنا ولو تطلّب منه الأمر أن يلعب دور المشاكس الذي يفتعل المشاكل لخلق الشجار مع الأوغاد..

وحين نادى الوطن الجميع للدفاع عن أمان الناس، كان أحد أوائل عشاق الأمان في البلد.. فتطوع للذود عنه.

ترنيمة من الورقة التاسعة

(ياسمين) صديقة الكتب التي قرأناها معاً والنزهات والجلسات، الأفراح والأحزان.. لم تكن في ماضي الطفولة سوى تلك الطفلة المتباهية بجمالها وبالأماكن السياحية التي زارتها مع الأهل واشترت منها ملابسها..

وكانت أولويّاتها في الحياة تتعلّق بالمظاهر.. وطالما لامني البعض لمصادقتها ليس لأنَّها مرفّهة ومشغولة بالمظاهر فحسب.. بل لعدم مبالاتها بإثراء فكرها بما يجعلها إنسانة مليئة.. وأوحى ذلك لهم، بوسط بيئيّ مرفّه تنهل منه (ياسمين) المعنى الخاطئ للسعادة - لكنَّ حالتها في ربيع عمرها التي تعرضت فيها لمواجهة غير متكافئة مع الحزن والموت والزواج المبكّر الخاسر برغم توفّر المال، قد ألقت بها في مهاوي الأسى.. وأحرقت المعاناة قشورها الظاهريّة وأبرزت آلام إنسانيتها وجعلها ذلك مفاجأة مدهشة للجميع، بواسع رأفتها وعمق إحساسها خلال الحرب.. إذ بدت (ياسمين) أخرى مختلفة.. حين برز اهتمامها بالبحث عن العائلات المنكوبة والبؤساء لمسح أحزانهم وتقديم خدماتها لهم..

وبدت شابَّة متواضعة تملأ المحبّة قلبها للجميع، وبلغت شفقتها الإنسانيّة أوجها حين منحت جلّ ما تملكه من خير للمجتمع والناس وشجّعت

الجيل الجديد على الثقافة والقراءة المتنوّعة.. من خلال إدارتها لمكتبة ورثتها عن والدها وما تقيمه وتشارك به من معارض للكتاب..

هذا ما يفعلهُ واقع الحياة بمساراتِ فكر الإنسان وسلوكه حين يضعه في مختبرِ الأيّام.. فيمضي إلى مصيرٍ يدهشُ طفولته..!

وجلَّ ما يعتنقهُ من أفكارٍ يجري محاورتها وتهذيبها في أعماقه.. ليحدث التغيير المناسب الذي قد يُرضيه ويرضي محيطه حين يعلن عن جوهره الذي كان يلتحف بطبقات هشّة قاتمة لا تشبه حقيقته الكامنة في حناياه والتي يُبيح البعض لأنفسهم ظلمه عبر تقييماتٍ قاسية من خلال طبقاته الظاهرية تلك..! والتي يقوم الزمن بتقشيرها بما سعى كلّ إنسان إلى اعتماده نهجاً لحياته وهدفاً..

إنَّ إدراك بعض أسرار أعماقنا وأهداف حياتنا يوحي بنضجنا..

حيث تتقلّب أوضاعنا على نار الزمن والتجارب إلى أن نصل لحالة تجعل لحياتنا مذاق الإنسانية.. أو تذهب بنا إلى مرارة معاناة البشرية..!.

غادرنا سذاجة الطفولة وكبرنا وفعلت بنا نيران النضج ما فعلت..!

اتفقنا أنَّ الحياة قادمة نحونا كساحرة ولا ندري أين ستنفخ غضبها أو سحرها!..

وهل ستلقي بنا في المهالك كأبطال الأساطير القديمة..؟..

أم ستفصل عالمنا لعالمين أحدهما لا يعرف إلا الشقاء وعالم آخر بهيج هانئ لا علاقة له سوى بالفرح؟!..

ترنيمة من الورقة العاشرة

لقد عبرتُ أروقة ماضي السذاجة

وكنت تلك الطفلة التي تقول الحقيقة ببراءة في المواقف كافّة..

تأثرتُ بفكر والدي الذي كان يعمل قاضياً للتحقيق في المحكمة.. وفي مرحلة الحرب -أو لعنة الحرب التي تحرّض على القتل- كثر انشغاله في التحقيق بجرائم القتل.. ولكنّه كان حين عودته للمنزل، يخلع شؤون عمله خارج حدود المنزل.. وغالباً ما كان يدخل وفي يده بعض غراس الورد الفريدة من نوعها.. كي يحظى بدهشة فرح من عيني والدتي التي هي حبّ عمره.. كنتُ معجبة جداً بحبّهما العظيم..!

وفي نظرة لمرآة الأمس.. بدا لي جليّاً سلوكي الساذج القديم حين كنتُ أُعبّر عن مشاعري بعفويَّة وبراءة.. كشعب شريد سدّت أمامه الدروب وهو يبحث عن وطن..!

وعندما كان يضطرّني الأمر للغضب كنت أثيرُ الجنون.. كوطن تناهشته المحن..

وكنتُ إذا استدعى الأمر حزني.. أبكي بحرقة.. كأرض سليبة هجرها الأحبة إلى أجل غير مسمّى..

وحين يتطلّب الموقف استيائي ..كنت أُبديه بشدّة وأصرّحُ به.. كمتمرد أسير لا يهاب قيود سجنه.. إلى أن صقل الشباب أغصاني الطرية تلك وتفاقمت تشعّبات دروب الحياة أمامي.. ولاحظت أنَّ أشد ما أحبّه في الحياة هو السلام.. ألفيت ذاتي أحبُّ الناس بخيرهم وشرّهم لأنَّنا سنفترق ذات يوم وأنا أمقتُ الفراق..

أحببتُ تلك الحسودة برغم معرفتي بأنَّ سلوكها يتلوّى كأفعى رقطاء ويجعلها تنفث سمّها في جراحي كلّما ذُكر اسمي أمامها في غيابي.. وأحببتُ ذلك الحقود الذي يدرك افتقاره لتقديم الخير فيبادر بافتعال الشرور.. وأحببت أصحاب الألسنة الشوكية برغم إدراكي لقتامة قلوبهم، وأنَّ أحدهم يُباهي أمام بؤس إنسانيتهم المهملة، بكراهيته ويبرز موهبته الحمقاء بالنبذ بألقابٍ يعتقد أنّها ترمّم حطامهم وترضيهم، وتملأ خواء أعماقهم المضطربة تجاه الحياة..

قلتُ أحببتهم ولم أقل أشفق عليهم لأنّ الشعور بالحبِّ أسمى من الإحساس بالشفقة..

وأصبحت حذرة في انفعالاتي، وقد تسلّل الخوف إلى منعطفات دهشتي.. وبتُّ أداري خيباتي.. كتائه في عاصفة هوجاء لا ترحم..!

وأكاد أشبه أمّي التي لا تغضب..! وتكتفي بابتسامتها علاجاً للمواقف العصيبة في الحياة..!

سألتُ والدتي -الرصينة الهادئة عاشقة الورد-:

"أمّي لا أذكر أنّني شاهدتك تغضبين يوماً.. هل يروق لك كلّ ما يجري حولك في الحياة دائماً؟!..

أجابتني:

"بل يثير غضبي هذا الذي يجري كلّه.. لكنَّ إدراكي لواجباتي ينال من حقوقي.. حين يُحتّم عليّ تقديم أفضل ما لديّ من مشاعر من أجل من أحببتهم وأعيش معهم ويتملّكني الشعور بالمسؤولية تجاه تحقيق سعادتهم.."

الفصل الثالث

برغم عدم رغبتي في تكرار شخصية والدتي المسالمة التي تعنيها سعادة الجميع وتنسى نفسها.. وجدت نفسي أتشرب فلسفة نظرتها لمعظم أمور الحياة من حيث لا أدري..! وبطريقة ما قمتُ بحملِ شموعها ذاتها لإنارة مجاهل دربي.. وترسّختْ ردود أفعالها في أعماق فكري.. وأدخلتني إلى دارة واقع لا إراديّ.. ودارت بي الأيّام والمواقف والعثرات، إلى أن غدوت ما أنا عليه الآن.. تلك الإنسانة المُحبّة الهادئة والكتومة التي تحاذر من إظهار غضبها لأحبّتها كي تجنّبهم الأحزان.. والتي باتتْ من "الكاظمين الغيظ" أمام غضبهم حفاظاً على حياة مشتركة معهم ترغب أن يؤمّها الوئام، فتُقدّم أفضل ما لديها من مشاعر إراديّاً، وتسعى للتسامح معهم عندما يتطلب الأمر الرأفة والمسامحة..!

لقد تمكّنتُ بامتلاكي لمقدرة كظم الغيظ وقوة الإرادة من التماسك.. ومنعني تماسكي من الانهيار برغم إخفاقاتي المتعددة.. وتشبّثتُ بإنسانيتي لأتجاهل مباعث البغضاء..!

وأدركت أنّ الإنسان الواعي هو شخصية متطورة عبر ازدياد ثقافته مع الزمن.. وأنَّ الكائن العدواني المنغلق ثقافيًّا واجتماعيًّا هو بحالة مرضيَّة وغير قابلة للتطور لأنَّه لا يجد متعته سوى بإحداث خدش مؤلم لدى

شخص ما.. والحياة المسالمة تُعدّ بالنسبة له كوَّة تضيقُ ضاغطة على صدره وهي تمنعه من التمتّع بميوله المنحلّة وتوشك على إعاقة تنفّسه.. فلا يستطيع التقنُّع لمدَّة طويلة.. ولن تتمكّن المعايير الدينيّة أو الأخلاقيَّة من ردعه عن سلوك مفاجئ يؤكّد انسحابه من أقنعته الزائفة وعودته إلى أوحال مستنقعه المنفلت من الضوابط كلّها..

وأدركت أيضًا أنّ الوعي يكمن في تنامي البصيرة التي تزيد العزيمة ليشتدَّ البأس ويتابع الإنسان نشر المحبّة حوله ويتمكّن من رتق الريش على أجنحته آنَ الإرهاق، للتّحليق في خضرة مروج الحياة حيث تنمو أزهار الخير على خطاه أينما حلَّ في محيطه كلّه..

أصبحتُ الملاذ الآمن لأصدقائي وحافظة أسرارهم جميعًا.. وهنا أضاء أعماقي اعتزازي بما بنيته.. وانطلقتُ في حبّي للحياة التي علينا محاولة التأقلم معها دومًا وعدم اليأس منها لوجود أحبتنا فيها.. وهي لن تكترث بنا إلّا إذا سعينا لهذا التأقلم..

وكم هم كثر أولئك الذين رفضوا هذا المبدأ واتخذوا القرار بإنهاء حياتهم انتحاراً..

أحد الشبان تغلبت الرغبة بالانتحار لديه على إرادة الحياة.. بسبب فشله العاطفي، فأعدم نفسه أمام منزل حبيبته..

وآخر سافر لدراسة فرع جامعي يرضي طموح أمّه..! التي أمطرته بالرسائل متوسلة إليه ألّا يسمح لأحد بالشماتة بفشله و عليه أن يحظى بالشهادة الجامعية المرجوَّة..

فوضع الرسائل على منضدته وكتب:

"آسف لم أتمكن من تحقيق أحلامكم"

وكتبَ على ورقة أخرى عبارة و ألصقها على باب الغرفة في سكنه الجامعي يحذر عبرها أصحابه:

"احذر أن تدخل الغرفة بمفردك..!"

ووجدوه منتحراً..!

أمّا الأديب العالمي "جي دوما باسال" الذي أقعده المرض فاستبدّ به اليأس والأسى.. أنهى حياته انتحاراً في عشيّة السنة الجديدة لعامه الثالث والأربعين بإطلاقه النار على رأسه غير أنَّه وجد مسدسه فارغًا.. وتصميمه على الانتحار يلحُّ عليه.. فقطع وريد حنجرته بالسكّين، وعلت وجهه ابتسامة ساخرة وقال ببرود:

"لقد قطعتُ حبل حياتي..!

لقد أعلن أولئك الأشخاص حربهم الخاصة.. وثورتهم في محاكمة ضمنية يرأسها الخيال.. ومنحوا الغنائم كلّها للموت..!

ترنيمة من الورقة الحادية عشر

في بداية مراهقتها تناست (ياسمين) تلميحات الحب المتبادلة بينها وبين (راني) ووافقت على الزواج والسفر خارج البلاد.. كانت بريئة الوجه والقلب كطفلة في خطوتها الأولى نحو توهج أنوار الحياة، توقفت أمام مفترق طرق وراحت ترنو أيّها تختار.. وتدخلت المصالح الماديّة فكان القرار قرارها.. اقتادتها المصالح نحو درب مصطنعة الضياء.. التفَّ حولها مسكن كالسجن.. قضبانه عصريَّة الطراز.. انطوت على ذاتها.. زادتها العزلة غربة وأغرقتها الكآبة في لجّتها.. لم تستطع ترجمة إحساسها.. المال بين يديها، والرفاهية تزركش الحياة من حولها، لكنها تجهل المعنى الحقيقي للسعادة.. التفتت إلى شريك رفاهيتها وقالت:

"توقعت أن يشعرني وجودنا معًا بالألفة.. لكنّ تباعدنا عميق جدًا.. أنت في عالمك وبين أناسك.. أمّا أنا فقد هجرت عالمي وقدمتُ إليك وكلّ يوم أبحث بشخصك عنك ولا أجدك.. لأنَّنا نعيش معًا جسديّا لا أكثر.. ولو أبحتَ لروحك أن تحبّ سواك، كانت روحي تآلفت معك ومع عالمك.. لكنّك تعجز عن منح الحبّ العميق لسواك، ويستعبدك حب القشور البرّاقة.."

لم يأخذ لكلامها الأهميَّة التي يستحقّها، أمضى الوقت في تأمّل شفاهها وهي تتكلم ولم يفهم ما تفوهتْ به من كلمات.. وضمّها إليه كما تضمّ الرمال

موجة، دفعتها الرياح خارج البحر وعليها أن ترطّب رمال الشاطئ وتذوب بها فكرًا وإرادة إلى أن تجف.. وأدركت أن كلمة "أحبّك" التي يرمّم بها جراحاتها اليوميَّة ويخدّر عبرها صوت آلامها قد تعني الرغبة لكنها لا تعني الحبّ، لأن الحبّ يشعّ من روح الكلمات وليس من حروفها، ولا يطلُّ الحبّ من لمسة اليد بل من الوهج المتسلل إليها عبر اللمسة.. وهو يجهل أنَّ للكلمات روح.. فيلقي كلماته كجثث الموتى، يرصفها أمامها بتوابيتها الجاهزة.. إلى أن امتلأ المسكن بها وغمر شقاء الموت أنفاسها ألمًا.. التقت بسيدة تقلّها عربة البؤس.. حذّرتها تجنّب ما تعرّضت له في غربتها من سحقٍ لبراعم أزهار تنمو في روحها إلى أن تغدو آلة مطواعة شبيهة بالبشر ولا تمتلك إحساسهم.. وبدت عربة البؤس أثناء الرحيل وكأنها ليست من عالم الأحياء ولا تنتمي لهم.. وبدأ فكرها بحياكة الريش لزمنها الآتي مستخدمة مواد هذا العالم المحيط.. وهي على يقين أنَّ ذلك سيعرّضها لما تعرّضت له تلك البائسة من منافقي هذا العالم، وتعلم أنّهم سيطلقون كلاب ثرثرتهم إثرها لتشويه صورتها، وسينعتونها بالمفردات الخاصة بنساء عالمهم والتي استقوها من قاموس العهر الذي لا يمتلكون سواه لوصف المرأة في

بيئتهم الزائفة الأنوار.. فهي في نظرهم حبّة فاكهة يلتهمونها ويلقون بجوهرها في سلّة مهملاتهم، وتقود فكرهم رغبة المصالح وسيادة المال..

وتمكّنت من التحليق خارج حدود ظلام أرواحهم وفضاء فكرهم.. وعادت في توقيت الحرب كطير نورانيّ يدرك المعنى الحقيقي للضياء.. كانت عودتها كعودة الرّحمة للقلوب، استعادها الحبّ الحقيقي وعشق الوطن، وسارعت إلى الانخراط بالنشاط الإنساني بروح مفعمة بالحبّ والأمل..

وما إن تفتح الحرب فمها، حتى تتدفق شراهتها التي فتكت عبر التاريخ القريب والبعيد، بما بناه البشر من العمران والمنجزات.. وعانت منها البشرية جمعاء وذروة المعاناة كان من نصيب دويلاتنا المتفرقة والنامية كلّها.. ولم يسلم من فتكها شيء.. لا تجليات تموز الخصب والتجدّد، ولا أناشيد جلجامش الباحث عن الصديق والسلوة والخلود، ولا رقم الأكاديين وإرث العرب ولا ما نقش الزمن على جبين بغداد وجسورها ومبانيها وتوغلت إلى أعماق عقول الأطفال وأنفاسهم عبر زادهم اليومي، وأحدثت فيهم الندوب التي لا تُرى..

قال (كريم) بعد أن تجنّد حفاظًا على أمان بلاده:

" لقد عاصرنا أشخاصًا يرسلون رسائل عديدة للنّاس والمجتمع والوطن حرّروها بمداد انفعالاتهم المنفلتة من قبضة عقولهم، بعد الإصغاء لأخبار صفراء ورمادية يكتنفها الحقد بغموضه الآسن..

ترفلُ فيها ثمرات الحرب المسمومة متدثّرة بوشاح السياسة وثوب الليل الداكن المثير للغرائز والرغبات..

وغرق البعض بتيه انفعالاتهم المشوّشة ومدّوا شبكتها نحو الناس لا لمحاولة إنقاذهم بل لكي يتّبعوهم بغباء وسذاجة وذهول..!"

أعدت تكرار عبارة (الليل الداكن) وقلت:

"مخيفة جدًا طقوسه بكلّ ما حوت العبارة من المعاني فكريًّا وواقعيًّا.. يثيرُ ظلامها الهموم..

أمّا النهار فقتامته تشعّ نورًا بمعانيه وظواهره.."

كنت أختار إقامة معظم ملتقيات صداقتنا بتوقيت نهاريّ في الزمن المُضاء والمضيء.. واستمرّ ذلك إلى مرحلة الشباب، تسلقنا سلالم النّور الممتدة على شرفته المشرقة التي طالما استقبلت فناجين قهوتنا..

والبعض طالما أغراه الليل للسهر برغم أنَّ ليل الحرب قد أثار الرَّهبة في نفوسنا.. حيث تكوَّرت أفكارنا الجميلة وانثنت هاجعة في أعماقنا بذهول..!

وتصعَّدت مخاوفنا بطريقة مشوّشة.. بدت ظواهرها أحيانًا منطقيَّة مناسبة لواقعنا وأحيانا أخرى لا منطقية ومجنونة..!

وحين عرضتُ خياري بالملتقى النهاري على أصدقائي نال موافقتهم برغم مناقشة الأسباب مطوَّلاً..

لكنني تمكّنت من إقناعهم حين طرحتُ عليهم -بشاعريتي المعهودة لديهم- وجهة نظري ومعاناتي المتعلقة برهبتي من الليل..!

الليل بمظهره القاتم.. أهابُ عتمتهُ تلك التي تحجبُ الجبال والسفوح.. الأنهار والبحار، و يُغرقني بصمتي وتأمّلاتي في الوجود.. وكم كان هذا التأمّل يجرف مشاعري نحو الأحزان.. لذلك وجدتُ أنّه علينا أن نلتقي في النّهار حيث يتألّق من نوره مرح اللحظات، ويبدّد سناه كربة الأسى ووحشة الكآبة..

وربّما تكمن أسباب هذا الخوف في عقلي الباطني ومجهولة لديّ أسرار تقوقعي المنزلي في الليل كما همس لي (أنس) ذات يوم ساخراً..!

ثمَّ قال:

"(سيلا) يا عاشقة النور.. أنا من عشاق الليل.. وغالباً ما أسيرُ وحيداً أجوب طرقات الظلام، علّني أكتشف سرّ غموضه.. فإمّا أن أحبّه أكثر، أو أنّه سيسعى لتعليمي كيف أهابه.. وربما كان الليل قاسيًا يرغب في التلذّذ بنظرات الرعب التي تسببها رهبته.. وربما كان رحيماً يُرخي سدوله على كتفي فتاة جميلة منطوية على ذاتها قرب نافذة تتأمّل حلكته وتبوح لورقة بيضاء عمّا يعتري أعماقها ويجعل من الليل عقدة لديها..!"

عقّبت على كلامه:

"وهل تعتقد أنَّ علاقتي مع الليل عقدة..؟!

على كلّ ربّما.. ولكن لا يخلو إنسان من عقدة ما..! هكذا يقول عالم النفس (فرويد).

ترنيمة من الورقة الثانية عشر

الحربُ أمّ الخطوب والعُقَد التي تشظَّت في نفوسنا جميعها.. حيث يموجُ زمنها بالاغتيالات والاختطاف والمآسي العائلية والوطنية وتتأرجح ألغامها وتفجيراتها بين قلوبنا وعقولنا..!

اخترق خيالي شاشة التلفاز بعد الأخبار وعالمها المريع شاهدت أحد الشبان ينازع الرمق الأخير الفاصل بين الموت والحياة.. وجالت أفكاري في عالم غريب رأيته في ليل يصخب بالمجون وكؤوس المكائد السريّة.. والموسيقى اللاهية بالناس كما تلهو الريح بقصاصات ورق لا أهمية لها.. كان يقف ويحنو على سيدة الحروب كطفل صغير، لم يزل فكره أبيض الصفحة.. وهي بكل ما تملك من دهاء.. راحت تزركش رغباتها على بياض صفحته بانتشاء، وتقدّم له السجائر التي اختارت مكوناتها بدقّة.. من تبغ وحشائش ورغبات، لكسب هّيامه واستسلامه لها.

اتّبع طيف شهوتها المختزلة في عالمه الأليف وما يحوي من أعلام ترفرف كالحمائم، وأرض تنعم بالخيرات، وأناس زادهم الطهارة، يتكاثف في احتفالاتهم دخان (البخور) والنباتات العطرية، يتشاركون (الدبكة) رقصتهم المفضلة ويصدح (الطبل والمزمار) في أفراحهم، التي يعلو صوتها فوق أحزانهم لأنهم عشاق الحياة.. وراح فكره يترجم شهوتها على هيئة

مفرقعات سامة في دياره.. وتوالت عليه هداياها عبر كراتها اللاهبة التي تنشر أمانيها في الأماكن كلّها من حوله.. وأهداها بدوره لأصحابه، كي تُطرب حين تصلها موسيقى أحدثتها نيرانها والتي سعت من خلاله جعلها الموسيقى الأكثر شهرة وانتشارًا في عالمه الأليف.. وكانت ترغم الكون على التأمّل معها إلى ألسنة النيران المتصاعدة في فضاء عالم عشّاق هداياها الذين أتقنو لعبة الكراهية.. جمع كراتها النارية ورغب باستقراء عالمها الغريب في عالمه الأليف..

قذف الكرة الأولى؛ فُتح أمامه كوّة تُشبه المرآة، شاهد من خلالها العديد من الكرات الملتهبة تتطاير من يدي شابّ بمثل سنّه، يضع في لفافة تبغه الحشائش الغريبة والوجوه الأليفة.. ويضرم فيها نيران الحقد المنقوش على صفحة فكره البيضاء.

قذف الكرة الثانية؛ أحدثت حفرة انهداميّة في جدار واقعه.. جعلته يرى دائرة من الشبّان يحيطون بمدرّب يحمل حقيبة.. وحين يفتحها أمامهم، تغريهم محتوياتها وتُخضع إرادتهم لفكره، يدربهم على أعمالٍ يقومون بها، بمفاهيم ترضي نزعات سيدته ذاتها، تختلط في عقولهم تلك المفاهيم فيزاوجون البطولة للتدمير، وتتوالد في عالمهم شتى صنوف الأذيّة التي تتلوّث

بها مياه الشرب، ويكافئهم المدرب بما يمنح عقولهم النشوة التي تُشعرهم بمتعة البطولة.. وكان أناس عالمهم الأليف يستبدلون المياه الملوّثة بغيرها من أرضهم الغنّاء.. حين يحفرون الآبار ويستخرجون ما يروي ظمأهم وأراضيهم.. ثمّ دارت الأفكار المدمّرة حول الضياء وحوّلت مصدر النور إلى خراب حين تآلف الشبان مع حبوب النسيان حلوة المذاق وعشق بطولة لهيب الدمار..

وفتحت كرة العاشق كوّة؛ أظهرت له أحد الأحياء وقد أحاط به فتية يباهون بأنّهم قادمون من العصر الحجري ويحملون أسلحة غريبة الشكل واللهب، تلهو ألسنتهم بمضغ حبيبات النشوة عصرية الصنع والمذاق.. حلّ الظلام ولم يستطع أهل الحي الخروج من منازلهم، وفي ركن مضطرب من الحي ارتعشت الريشة بيد رسامة صاغت ألمها بلون واقعي يستغيث بإنسانية الإنسان، على لوحات مجنّحة، تسللت بين الأسلحة دون أن تلحظها العيون، ولكنَّها سرعان ما عادت إليها كطفلة ينطق حالها بالدموع.. وما كان منها سوى التمرّد على المخاوف.. جفّفت الدموع بسريالية ألهبت خيالها المستعر وحوّلتها لحصان أسطوري، يشعّ من جناحيه الضياء.. امتطته محلّقة به فوق هضاب المرارة وحقول القهر.

بدا على عاشق سيّدة الَّلهب التأثّر ممّا رأى..!.. شعر أن انفعاله قاده لمنحدر الألم، وعليه البحث عن منفذ للخلاص.. وصل إحساسه إلى سيّدته الماكرة..

في كرته الأخيرة؛ تراءى له موقعه المحايد، تحت أغصان شجرة وريفة الظلال، وهو يرنو لشظايا النار المتطايرة في عالم الألفة، ويُفكّر بحبيبته اللاهية به وبأناس عالمه الأليف، يدنو من نافذة فُتحت أمامه إثر انهيار مفاجئ.. ويُحيط به بعض الأشخاص الّذين خلت من نظراتهم المعاني الإنسانية، يُشهر أحدهم في وجهه السلاح، ومن خلفه أتباعه، أدرك أنّه منافسه الجديد على حبّ سيّدة النشوة التي تغدق هدايا البغضاء المغلفة بالمتعة.. نهض يدافع عن نفسه، نشبت معركة الغدر بينهما، وهزمه العاشق الجديد الذي كافأته الفاتنة أفعى الحرب ولاطفته في سرير الليل حتى انبلاج الضياء.. ليمتثل لأوامرها المشبعة بفوضى الخراب في عالمه الأليف.

أدركتُ أنّه عبر صراعات الضعف والقوّة و ويلات الحروب انبثق ذلك الخوف الأزلي من العتمة التي تتربّص بالشوارع والناس والمنازل، وتتجلَّى في مهابة الظلام وسكونه المخنوق..! كالهدوء الذي يسبق العواصف والرعود المنذرة بالخطر..

إنّه الليل الذي نفخت فيه الحرب أنفاسها.. وكم يطول الحديث عنه إلى أن يختفي بياض الصفحات..!

التفّ ظلامه على أعناق أحبتي.. ورحل بهم عن عالمي ..

وكم دثّرتْ ثنايا عتمته أسلحة الجريمة وأمضّت الروح..

وطالما حجب فضاء ظلامه ملامح القاتل إلى حينٍ غير معلوم..!

وكثيراً ما تسلّل اللصوص في غياهب ساعاته الحالكة واخترقوا قلاع العمر المحصنّة..

وجاست الذئاب في سديم رؤانا بحثاً عن فريسة ضعيفة شهية..

وأخرجت الخفافيش البشريّة من مخاوفنا ما يناسب خبايا نفوسها وشهواتها..!

أمّا عشق الضياء فهو الحقيقة الأساسيَّة المعلنة المنبثقة من تلك الطفولة السعيدة..

فلم أزل تلك الطفلة التي تجري ببراءة تحت أشعة شمس الصباح وتطارد الفراشات بين صفوف الأزهار..

وكم تبهجني إشراقة الفرح على وجوه أحبتي في ذكريات السفر والاندماج مع روح الطبيعة حيث تمتصّ الأمواج الزرقاء الهموم.. وتتسلل لأعماق

أحزاننا كي تنعش أرواحنا المتعبة.. وتقوم بتنقيتها من شوائب الأسى المزمن، ليسود نفوسنا السلام..

ولولا عشق الضياء ومهابة الليل لما سعى الإنسان لاختراع ما ينير به أمسيته العمياء..

بالنور وحده ينبت ريش الحريّة على أجنحة البؤساء..

في الليل أتخيّل النهار مكبّلاً بأصفاد الظلام، متكئاً على جدار السماء بانكسار.. أتأمّله من نافذتي وأنتظر أن يحرّره الصباح..!"

جلسنا لمناقشة مشاكل التوتر التي سادت بيننا مؤخرًا.. وانقطع التيّار فجأة.. وفي هذه المكتبة يتوه النهار وتغلق الرفوف منافذه لترتصف الكتب التي تحوي بين ثناياها الإشراق، لكنّ حديث الأصدقاء استمرّ في إنارة الشموع، التي يخبو نورها في ركن يجلس فيه الحزن، ويشعّ في ركن آخر تعلو فيه الضحكات.. وما بين الركنين كانت (ياسمين) تجلس وتمسك بيدها شمعة حبّ متوهجة وتمضي الوقت في ترتيب علامات الترقيم في بهو النقاش، ووضعت أزهاري على منضدة الحوار.. جلس (راني) في ذات الركن ولا حوار متبادل بينهما لأنّ الليالي الماضية قد بدّلته.. واكتسى وجهه بالشحوب، اتّشح البياض في عينيه بحمرة دموية.. وبدت ملامحه متجهّمة.. وكنت

أراقبهما بطريقة غير مباشرة.. وبين الفينة والأخرى تنثال من عينيها إشعاعات حبّ شفيفة.. تمنح ملامحه ذاك التوهج العجيب، بدا هيكله البشري أمامها بهيئة تستدعي زمن آخر.. حاول التحكم بالنقاش بالصمت حينًا وبالمفردات القطعيّة الحاسمة أحيانًا أخرى.. انتشرت من الحوار رائحة الموت والحزن وعلى المنضدة تحركت بعض الجثث على رقعة شطرنج، وتحولت نهايات بعض الضحكات إلى الاشمئزاز والتلفظ بمفردات عدوانيّة.. تحدث البعض عن الحب وعالمه الذي يصلح في أوقات الحرب ليمنح قساوة الواقع بعض لطفه.. خرجت من ملامحه الباهتة ابتسامة أضاءت نظرته التي تحبّها (ياسمين)، وكان يئنّ بين ضلوعها صوت الحب.. قالت:

"هل يقوى الحبّ على العيش بعد إرهاق الصبر وذبول الأمنيات..؟"

وتخلل لحظات الصمت، مغادرة الواقع عبر الذاكرة.. رافق الفكر الخيال وانتقل من حديث الحب إلى جنون اللحظات وانفعال الكلمات للضحك أو البكاء.. ومحاولة إيقاف الزمن على حافّة الفرح، عسى ألّا يتجاوز هذه المرحلة من السعادة.. لكن الزمن يهوى الجري واللهو بكاميراته الخرافيّة.. يُسجلُ ما دار ويدور من كلمات و وعود، تلتقطها خلايا الصبر، لتحوّلها إلى حياة.. ويموج النقاش بحماس دافئ حين يتّفق الجميع أنّ

الهدف الأول لنا هو تخفيف آلام الضعفاء وتقليص مساحة بؤسهم بما أوتينا من قوّة ومحبّة.. علت الأصوات حين اتخذ الحديث طابع الغضب واشتمل الحوار على الفساد ذاك الانحلال المخلّ لأيّ قضية إنسانيّة.. أحضرت (ياسمين) القهوة عسى أن تخفّف ما احتدم من الصراع الانفعالي في الحوار، وقمتُ بدعوتهم إلى حديقة منزلي حيث الورد يبعث على البهجة ويمنح الرقّة لمفردات الحديث.

ترنيمة من الورقة الثالثة عشر

أجمل ملتقيات صداقتنا كانت تتمّ خلال مراحلها الأولى في حديقة منزلي بين الأزهار التي تضمّخ شذاها بعبير ثرثرتنا الطفولية البريئة.. ومكث في ربوعها موطن جلساتنا الشقيّة المرحة.. وذكرياتها المفعمة بالحبّ والنقاشات الصاخبة أحيانا والمثمرة بالثقافة الفوضوية من حيث القيمة أحياناً أُخر.. والتي استمرت إلى أيّام الشباب في الجامعة حيث درس (كريم) الأدب الإنكليزي و(زينة) الأدب العربي.. أمّا راني فقد درس الموسيقى أكاديميًّا واختصّت ياسمين بدراسة العلوم و خضتُ أنا في دراسة علم النفس.. أما أنس الرياضي المثقّف فاختصّ في دراسة الفلسفة.. لذلك لا انتهاء لنقاشاتنا..!

طالما استوعبت حديقة منزلي صداقتنا بشجارنا وتصافينا.. بين صنوف الأزهار والشجيرات.. المكان الوحيد الذي يعدُّ الملاذ الآمن الذي يسعدني ليله مهما اشتدت حلكته.. فقد أناره ورد قمري(أمّي) وأمان صديقي العظيم (والدي) وضحكات الأحبّة.. (كريم) و(زينة).. (ياسمين) و (راني) و(أنس) أقرب أصدقائي لقلبي..

كان بعد ظهيرة ذلك اليوم مقلقاً برغم كثرة المزاح والضحك.. وقد شاركتهم مرحهم، لكنّ (راني) الذي همس لي من البداية:

"سأبقى بعد ذهابهم، أريد البوح لك بسرّ خاص."

قد أثار اهتمامي.. (راني) الذي بدا ساهماً في ملكوت خاصّ به.. برغم المشاركة في الضحك والمزاح، إلى أن همّ الأصدقاء بالرحيل، نهض واعتذر منهم قائلاً:

"وعدني والدي بالقدوم إلى منزل (سيلا) وسأنتظره."

ودّعنا الأصدقاء وعدنا لمجلسنا قرب الأزهار..

انبعثت أفراح وشجون (راني) تستعرض ذاتها لأحاسيسي في يومٍ مضى وكان يبثّني خبايا قصّته مع والدته التي اختفت أو ربّما تمَّ اختطافها في طفولته.. حيث وصف لي بريشة رسام خبير ملامح احتفالها له في عيد ميلاده.. وكيف كانت تفاصيل أفراحه المتلاحقة.. وما هي الطقوس التي كانت تتّبعها والدته لتخلق له من يوم اعتيادي أجمل ذكرى.. إذ كانت تجعله يختار ما يخصّه من الآلات الموسيقيّة والمعزوفات، والملابس والألعاب والقصص.. منذ أن بدأ التّعرّف على الألوان والأشياء في الحياة.. وحتى ملابس الدوام المدرسي التحضيري التي كانت تروي له عنها قصص الفرسان والأمراء لكي تجعلها تحظى بإعجابه، لأنّها مفروضة من المدرسة وقد اعتاد (راني) على اختيار ما يلبسه بنفسه..

وكانت والدته (سهى) تعنى برأيه في معزوفاتها الموسيقية وملابسها.. وقبل الرحيل قامت بشراء ثوب ورديّ جميل أحبّت أن ترتديه لمناسبة عيد ميلاده..!

وقرأ لي ذات يوم قصيدة مؤثرة جدًا لبدر شاكر السيّاب بعنوان: "الباب تقرعه الرياح":

"الباب ما قرعته غير الرّيح

آه لعل روحًا في الرياح

هامت تمرُّ على المرافئ أو محطات القطار

هي روح أمّي هزها الحبّ العميق

حبّ الأمومة فهي تبكي:

"آه يا ولدي البعيد عن الديار..!

ويلاه كيف تعود وحدك لا دليل ولا رفيق؟!

أمّاه ليتك لم تغيبي خلف سور من حجار.. لا باب فيه لكي أدقّ ولا نوافذ في الجدار..!

كيف انطلقتِ على طريق لا يعود السائرون.. من ظلمة صفراء فيه كأنها غسق البحار..؟!

الباب تقرعه الرياح لعلّ روحًا منك زار..!

هذا الغريب..! هو ابنك السهران يحرقه الحنين

أمّاه ليتك ترجعين شبحًا، وكيف أخاف منه وما امّحت رغم السنين قسمات وجهك من خيالي..؟!

أين أنت أتسمعين

صرخات قلبي وهو يذبحه الحنين؟

وتخلّل تلك القصيدة وتبعها نحيبنا المرير على والدته ذات الحبّ الطاغي الذي يهيمن على مشاعره والتي قامت بتعليمه مقطوعة موسيقيّة سيعزفها على كمانه.. كما أسمعته المعزوفة التي اختارتها لتعزفها له في عيد ميلاده..

وغالبًا ما كان يتبع حديثه وبصورة دائمة نشيجنا الحزين معًا.. وقد استمر في سرد الأحداث التفصيلية الدقيقة لذكريات ما قبل رحيلها المباغت الرهيب..! إلى أن كبرنا وأنهينا الثانوية العامّة وبدأنا بالدراسة الجامعيّة..

وفي الجامعة أصبحَ أكثر ميلًا إلى الصمت والشرود.. وأحيانًا كان يفضل العزلة على جلسات صداقتنا التي كنا جميعًا نتوق إليها..

أذكر ذلك اليوم العصيب من الطفولة في عيد ميلاده حيث حضرتُ الحفل أنا ولفيف من المدعوّين، أمّي، أبي، وجمع من الأصدقاء والأهالي..

كانت المرة الأولى التي يحتفل الوالد لراني بعد اعتقاده أنّه قد نسي حزنه على والدته.. والمرة الأولى التي سهرنا فيها ليلًا معًا في طفولتنا وكان المكان (مقهى الليل) الذي يمتلكه العم (عادل) والد (راني)..

لعب (أنس) في ذلك اليوم دور المعلق الرياضي.. فراح يصفنا فردًا فردًا.. ثم بدأ بتقييمنا بشكلٍ جماعي.. بدا مظهرنا في الحفل من وجهة نظره:

"نبدو كأبطال المسرحيات والحفلات التنكريّة بملابسنا المختلفة هذه وكأننا في مهرجان استعراضي تَنافسي على كأس الغرابة وأجمل ثوب للأميرات وأبهى حلّة للأمراء والملوك..

أمّا الأمهات فلديهن كأس لأغرب تسريحة شعر وأكبر عيون ومخالب بشرية ملونة.."

وأشار إلى أظافر النساء هامساً لنا لئلا يكون القصاص من نصيبه واسترسل في الضحك.. وكانت والدته -عازفة البيانو في المقهى- تراقب تعليقاته وتتمنى ألّا تصل لأسماع الحضور وهدّدته بأنَّها سترشق كأس الماء عليه إن لم يكفّ عن المزاح، لكنَّ تواجدها بالقرب من الأهالي وخشيتها لفت أنظارهم لتعليقات ابنها منعها من تنفيذ تهديدها له و هو الذي أمضى يومه في المقهى مع (راني) الذي كان يتدرّب على معزوفته التي

سيعزفها في الحفل.. ومضى الوقت سريعًا في ذلك اليوم.. الذي حضر فيه والد (راني) متأخرًا بعض الشيء لانتظاره استلام قالب الكاتو المماثل لما يقدّم في الأعراس والأفراح الكبرى، من تعدد لطبقاته وألوان زخارفه المنتقاة بعناية ودقة من الكريمة والشوكولا والفاكهة.. ولكنّه وبرغم امتلاء مجلسه بالنساء والرجال والكحول حيث تمضي به ساعات الزمن سريعًا.. راح القلق يعتوره ويكتنف ظلال ابتساماته طافياً على ملامحه.. وهو يتأمَّل ملامح (راني) الذي يبدو بحالة انتظار.. سأله:

"لماذا لم تبدأ بالعزف يا بُنيّ؟"

أجابه راني:

"لقد وعدتني ماما بالحضور وسترتدي فستانها الوردي الذي أحبّه.. قالت أنَّها ستنتهي من صالون التجميل وستأتي مباشرة إلى المقهى.."

بدا الهمّ والاكتئاب يلوح على ملامح الوالد الذي أدرك أن ابنه يعيش ذكرى عيد ميلاد مضى ولكنه بقي في خياله لأنَّ والدته اختفت في ذلك العيد.. وانتهى وجودها من حياته..

قال السيد عادل:

"اعزف لنا الآن.. الجميع بانتظارك.." انفعل راني:

"لكنني وعدتها أنني سأنتظرها.."

فطلب والد راني من السيدة (مادلين) -والدة أنس- أن تبدا بالعزف على البيانو.. فما كان من (راني) سوى الركض بفرح شديد باتجاه الباب حيث لا يوجد أحد..!

ولكنَّه بدا وكأنه يصافح والدته في ذلك الفراغ وبدا مظهره وكأنه يحتضنها..!

تحول الحفل إلى عزاء.. أبكى (راني) الجميع .. لكنّ ألق ضياء الحب بدا متوهجاً في عينيه وهو يحتضن والدته التي لا يؤمن بانتهاء وجودها من حياته.. والذي بقي طويلًا يحتضنها في حفل ميلاده ولا يعلم بأنّه يحتضن الفراغ الذي تركته الوالدة شاغرًا والتي وصفها لي فيما بعد:

"بدت بأبهى تسريحة شعر.. كانت تضمّني إلى صدرها بسعادة و ابتسامتها تنير ظلام الليل، جاءت بثوبها الورديّ الساحر.."

وبعد مرور الوقت والأعوام لذلك الفقد الكئيب.. أعادني(راني) للماضي وأيقظ تلك الذكريات حين كلّمني بحزم وبصوت هامس ممّا يدلّ على خصوصيّة الموضوع:

"(سيلا) خذي كلامي بمحمل الجدّ.. ولا تخبري أيّ كائن بما سأرويه لكِ."

شعرتُ بالرّهبة..! فذكراها تؤلمني والحديث معه عنها يبقي غصتي في حلقي!.. كانت عازفة رقيقة، ابتلعها الليل، ولم يرد اسمها بين من تحرر من جنح الظلام وحرب الريح الليليّة الهوجاء..

أجبته:

"أستمعُ لك (راني)، واطمئن سيبقى كلامك بيننا فقط، هيّا تحدث."

بدا عليه الفرح والدموع في عينيه تروي مأساة لا قرار لها..

"أنا أرى والدتي يا (سيلا).. أراها في المساء وأحيانًا في النهار منذ زمن بعيد ونسهر معًا، لكن لا أحد يراها سواي وهذا ما يحيّرني!.."

للوهلة الأولى أدهشني الخبر.. وكدت أطير من الفرح المجنون..!

لكنّني عدت لرشدي سريعاً وانتابني القلق الشديد عليه وأصابني بالذهول.. ونقلني إلى ذاك الحفل الكئيب في عيد ميلاده!..

تابع حديثه:

"في سكون الليل عندما أعزف بكماني وتحمل نغماته ما جال داخلي من أحاسيس وآلام.. تتدفق ألحاني معزوفات متفجرة تُلهب مشاعري .. وأرى والدتي تخرج بثوبها الوردي الجميل من حائط الغرفة حيث الخزانة الجدارية الكبيرة وتمسك كمانها بيدها وهي تبتسم لي..

وتبدأ بتدريبي على العزف كما كانت تفعل دائماً، تأخذ دور المايسترو وأنا أتبّع توجيهات أنغامها وأتابع تعابير وجهها."

فهمتُ من ذلك أنّ ما حصل في عيد ميلاده في زمن الطفولة لم يكن حالة عابرة..!

لم أعلم ما أصابني تلك الليلة بعد ذهابه.. لم أستطع النوم.. سهرتُ أفكّر به وبوالدته التي أتذكر ملامحها كحلم عابر..

تحدثت مع أصدقائي إلكترونيًّا في مواضيع لا تعنيني ولا تشغلني.. كي أهرب من حالتي تلك..

لكنني حافظتُ على سرّ (راني)، فلم أبح به لأحد.. برغم حديثي بالموضوع لوالدتي على أنّه مجرد قصة سمعت بها من أحد الأصدقاء ويا لها من قصة!..

أربكتني أثارت جنوني وفكري ومشاعري..

أضاءت على مساحة هامّة من حياتنا أنا وأصدقائي.. وكم شُغلنا في ذلك الوقت بقصة مأساة (راني) الحزين وكان همّنا الكبير كيف سنتمكن من إخراجه من حزنه..!

فسّرت لي والدتي الأمر من وجهة نظرها وهي على يقين أن من أتحدث عنه هو (راني) لكنّها قدّرت حالتي.. فلم يزل ماثلاً في ذاكرتنا جميعاً حفل ميلاده ذاك..!

قالت متجاهلة أنّها تعرف من أعني:

"إنها حالة الاشتياق للأم والتعلق بها بسبب حرمان حنانها لا أكثر.. وهذا التعلق أدّى لأوهام قربها الخيالي منه."..

وهذا تفسيري أيضا، إنّه الحبّ العظيم والتعلق الأعظم.. لكنّني كنت أشعر بفرحه وتسعدني سعادته مهما كانت الوسيلة مجنونة كرؤيته لوالدته حتى ولو كانت تلك الرؤية محض حلم أو وهم لا أكثر..! وكنت أسأله دائما:

"وهل رأيتها اليوم؟!"

يهزُّ رأسه إيجابًا وابتسامة محيّاه تشي بسعادة جوهرها.. آهات قهر مكتومة.

ترنيمة من الورقة الرابعة عشر

حلَّ الخريف وليله البارد الكئيب المثقل بالفاجعة، التي لم أخلها يوماً قدرنا القادم، بعد تلك الهناءة التي مُنّينا بها في صداقتنا من صخب الضحكات اللامسؤولة التي نلقي بها لأتفه الأسباب.. وذلك الحبّ المتواري بين حنايا ضلوعنا وقلوبنا المرهفة برغم هيمنة الحرب وتخييم ركابها في ديارنا.. و ويلاتها الجاثمة على صدور أمنياتنا..

تلك الحرب التي خدشت زمننا بمخالبها وأنيابها الفوضوية.. الدموية الشرسة.. التي عرقلت مسيرتنا.. وشوَّهت مظهرنا الحضاري، وأشكال المباني والطرقات، ورشقت سمومها في أراضينا، وبعض من لم تمسّهم الدماء.. أمعنت الجراح كثيراً بمسّهم متوغلة في أعماق نفوسهم بشروخ متفاوتة الأذية وطبيعة الجرح..

لكننا "نحن شعب الفينيق نؤمن بقوّة أسطوريّة ستمنحنا مقدرة النهوض من رمادنا"

تلك العبارة التي كان يرفع (أنس) صوته بها دائماً والتي أضحت شعار صداقتنا..

(مكتبة الياسمين) التي تديرها (ياسمين) كانت ملاذنا الأثير أيضًا الذي طالما لقبناه بحديقة الكتب..

وكم اختلطت مشاعرنا وتناقضت تجاه ذكريات ملاذنا الجميل هذا حيث كنّا نجتمع باشتياق لقراءة ما نحبّ و النقاش فيما نقرأ.. تخصص (أنس) في مناقشة الكتب النفسية وبعض أعمال شكسبير.. واهتمَّ راني بعالم الموسيقى وما كُتب عنه، واستوقفه بعض الشعر الذي يتغنّى به الشاعر في الأم.. و(كريم) اهتمّ بالكتب السياسيّة وتناقض قيمها مع ما يحصل على أرض الواقع.. أمّا أنا وياسمين وزينة فكانت اهتماماتنا متشابهة في كتب الثقافة المتنوّعة، الأدبية والفنيّة والنفسيّة أيضًا.. ولطالما تناقشنا في أمورنا الخاصة وشؤون الحياة كلّها لساعات..

وذات يوم كنتُ في المكتبة برفقة (ياسمين) و(راني) نستعيد ذكريات (أنس) و(كريم) وأيّامهما الصاخبة بذلك المزاح المجنون والضحك المجلجل وكلاهما قد تصدّى للحرب وتجنّد ضدّ ويلاتها وهمجيتها وريحها الشعواء المدمّرة للبنيان والشجر والإنسان..

وفجأة يطلُّ علينا (أنس) من باب المكتبة والذي بعد أن تطوّع للذود عن الوطن باتت رؤيته نادرة.. بدا في إطلالته هذه مختلفًا، كانت الدموع تنهال على وجنتيه والإرهاق يلتهم لون الحياة في وجهه.. هل هاجت أشجانه أثناء رؤيتنا..؟!

بسبب اشتياقه العظيم لنا ولجلساتنا الجميلة؟!..

أم أنّ الأحداث الحربيّة قد خذلت عنفوانه؟!..

أفسحنا له المجال ليجلس، وبلا مقدمات راح يروي لنا أسرار انحسار ابتسامته، وشحوبه المطلّ من محيّاه، وصوته اليائس الذي لم نعتد عليه في نبراته، فأين قهقهة ضحكاته وإشراقة الأمل في كلماته.. ما الذي جرى؟!..

وحين ازدحمت حوله الأسئلة.. أطرق بصمت واجم.. ثم رفع رأسه وانسابت الدموع التي لم نعهدها يومًا تغزو وجهه كهذا اليوم.. همس بانكسار:

"سأروي لكم.."

على ما يبدو أن الحرب قد زلزلت مكامن التفاؤل في نفسه بشوائب شوكية خطيرة.. رواها لنا أنس وغالبًا ما كان يروي لنا قصص نضاله في الحرب.. ولقصته هذه التأثير الأقوى.. كانوا أربعة جرحى (كريم) ،(دريد) ،(فهد) و(أنس) الذي كان الجرح الأبسط من نصيبه، فتطوع لإنقاذ أصحابه..

يبدأ أنس بحديثه الهادئ وصوته الحزين التَّعِب:

"كانت الدّماء تملأ ملابس (كريم).. اندفعت نحوه:

"هيا كريم انهض كي أتمكَّن من مساعدتك للخروج من هذا المكان الموحش، هيّا اتكئ عليّ.. أنت أولاً ثم سأعود لمساعدة الجميع"

التفتَ (كريم) بنظرة استعرض خلالها الجميع وكانت مليئة بالحيويّة وكأنَّه سليم معافى.. وخاطبني بحزم:

"بل أنا الأخير يا صديقي إصابتي الأخف.. هيّا أسرعوا.

وأصرّ على البقاء للأخير.. وحثَّني على الإسراع في مساعدة الرفاق..

امتثلت لرغبته وساعدته في الجلوس على حجر بين الأشجار المعمّرة التي جعلتها نيران الحرب يابسة بلا حياة.. نقلت الجريح الأول (دريد) إلى مكان آمن حيث يسهل إنقاذه.. وعدت للثاني (فهد)الذي كان ينتظرني بلهفة.. تأمّلت (كريم) بعمقٍ.. فهم مراميه..! فعبس وغمز بعين الملامة وابتسم قائلاً:

"هيّا أنس ساعد (فهد) لا تتلكأ أنا بانتظارك.."

وبقي مبتسمًا وعابسًا بمرح، كما كان يفعل دائمًا معنا ونحن نواجه أحد امتحاناتنا الجامعية الحرجة ويحثّنا على التفاؤل كي نرفع طاقتنا الإيجابيّة ونجذبها لتحقيق النجاح المرجو.. وتوالت الانفجارات والحرائق في الدروب بلا توقف وفي دمي أيضاً وخذلني الوقت.. تأخّرت كثيرًا جدًا وجدًا.."

يبكي ثم يتابع:

"تأخّرت في العودة لإنقاذ (كريم).. وحين وصلتُ إليه ألفيتهُ في ذات المكان الذي وضعتهُ فيه بين الأشجار الجافّة وهو مثلها بلا حياة.."

يجهشُ (أنس) بالبكاء ونشاركه النحيب على صديقنا الشقيّ المرح (كريم)..

يُكمل (أنس):

"كان يحمل بين أنامله عقب سيجارة وعلى الأرض العديد منها وعبوات ماء فارغة رافقوا أنفاسه الأخيرة.."

تخنق الدموع (أنس) وهو يصف حال (كريم) في مشهده الأخير:

"لم يكن بحوزته أيّ طعام أو ماء.. مات جوعًا وعطشًا ونزفًا.."

كتم (أنس) عن (زينة) الزوجة العاشقة لكريم وعن والدته وأهله جميعًا حقيقة نهايته المفجعة تلك والتي كانت كما عبّر لنا عنها بمرارة:

"كريم لم تقتله الرصاصة أو شظايا القنابل يا أصدقائي.. بل أنا من قتله..!

حين أصغيت لكلامه واتّبعته وهو الجريح جعلته يموت جوعًا وعطشًا ونزفًا أنا صديقه المقرَّب يا لفظاعة ذنبي !.."

بكاه بحرقة وشاركناه.. لكنّ الشعور بالذنب قد زاده ألمًا همس بحزن شفيف مخاطبًا (كريم) الغائب الحاضر بيننا:

"يا ليتك آثرت نفسك على سواك في تلك اللحظة فقط.. ثم اضطهدها بعد ذلك كما تشاء.. رغبتُ بإنقاذك أولاً !.. كيف سأغفر لنفسي ضياعك كيف؟!."

جفَّفتُ عبراتي التي ما فتئت تنهمر منذ تلقيت ذلك الخبر المفجع..

ترنيمة من الورقة الخامسة عشر

تساءلتُ.. ترى هل حقًّا تصلُ رسائلنا إلى موتانا بما أنَّ الروح خالدة لا تفنى مع الجسد ويُمكنها استقبال رسائلنا..؟!

ياله من حلم أن تلاحقنا أرواح من رحلوا من أحبّتنا.. ونتمكن بالبوح لهم عمّا فعله غيابهم بنا، ونعتذر لأرواحهم الحبيبة عن خطايانا في حقّهم.. ونستمر في بثّهم مشاعرنا كما في سابق عهدنا معهم..

هذا حلم أدرك ذلك..

لكن هنالك فرضية في علم النفس تقول:

"لا يوجد الشيء لأننا نحلم به، ولكننا نحلم به لأنه موجود."

وهذا ما آمنتْ به (زينة) التي تشعر بوجود (كريم) معها في المنزل.. تضع فنجان قهوته بجوار فنجانها تروي له أحداث يومها كلَّها.. فهو ممّن وصفهم الله تعالى بأنّهم أحياء ولكنّنا لا نشعر بوجودهم.. كان هذا ردّها حين بدأ الرجال يتقدمون لطلب الزواج منها بعد رحيله.. كانت تجيبهم:

"كريم حيّ يُرزق، وهو يعيش معي.. وأنا باقية على عهده الذي لن ينتهي من حياتي إلّا بموتي".

قد لا نستطيع الجزم بوجود أو نفي بعض الظواهر المدهشة التي يطلعنا عليها الزمن بين مرحلة وأخرى من حياتنا.. وتضع فكرنا في حيرة من أمر هذا الوجود، والجهل بالشيء لا يعني إلغاء حدوثه..

تغزوني الأفكار وفراق (كريم) لم يمنع تواجده معنا بأحاديثنا وذكرياتنا ولاسيما حين تباغتنا حادثة ما محرجة ويقول أحدنا:

"لو علم (كريم) بهذه القصة لوجد الحلّ لنا بسرعة البرق.. خسارة عقل هذا الرجل خسارة"..

لقد جعل الغصَّة تتشبث بحلقي تكاد لا تبرحه فقد كان شقيق روحي.. جميعنا نعلن عن ذكراه كلما ابتسمنا ونحن معًا أو تحدثنا عن علم الطاقة الإيجابية وكيفية جذبها لحياتنا.. يحضر طيف (كريم) بيننا بابتسامته وعبوسه اللطيف المحبب.. بكيناه بحرقة وقد تسلى الألم بأحاسيسنا الشفيفة حين جبنا تاريخنا الجميل في زمنه.. استعدنا ضحكاته، ولكن هيهات أن يعود ما مضى.. رحل من حياتنا وبقيت أحداث عهدنا معه في ذاكرتنا.. نشاهد طيفه بيننا وتتجسد صورته أمامنا ونهمُّ بلمسه للتواصل معه وتصديق وجوده برفقتنا. وإذ هو مجرد أمواج ضوئية لصورة تتراءى

لمشاعرنا لا ندرك كنهها.. هنالك قصة شهيرة ذكرها (بيير داكو).. لطالما شغلت الناس ذهنيّاً..

حدث أثناء الحرب العالمية الأولى أن وجدَ جنود إنكليز فجأة بينهم مجموعة من الفرسان الرمَّاحين

البريطانيين، من حرب المئة عام، وإذ أجري التحقيق تبين أن هؤلاء الجنود كانوا موجودين في الموقع نفسه الذي كانت قد جرت فيه معركة في القرون الوسطى..

لم يتم نقلهم عبر الزمن لكن ربما صورهم قد طبعت أثرها الكهرطيسي على الحديد والحجارة الحديدية مثلاً.. أي قد تكون ناقلية هذا المكان قابلة لحفظ الأحداث..!

الفصل الرابع

أحاطني الحزن وأدمت أشواكه الحادة أعماقي إثر رحيل صديق طفولتي وأخي (كريم)، فكيف حال وقع فراقه على زوجته التي عاش معها القصّة المثلى للحبّ في زمن بات فيه الناس بحالة معاناة وتوق للحب.. وصمد حبّهما وتجاوز حواجز الاختلافات الطائفيّة والبيئيّة والعادات..

حيث كان حفل زفاف (كريم وزينة) في قريته بين أهله ومجتمعه..

وافقت زينة على العيش معه في القرية فلم تشغلها مظاهر الحياة يومًا بالدرجة التي شغلها حبّ (كريم) ورغبة العيش الجميل معه..

بعد أن تعرّض حبَّهما خلال سنوات الجامعة وعهد الورد والأشواق لصنوف الغضب والخصام والغيرة وأشواكها الجارحة.. وكثيرا ما جابه أشباح الفراق المريعة.. ورمّم الصَّبر مراراً أثناء معاناة الحرب وبُعد المسافة.. وعبر مراحل تجاوز فيها تلك الحواجز كلّها إلى أن اهتزّت أرض الحبّ بثقل خطا العادات البالية التي وضعت قدمها في عرسهما، حين قام أحد الحضور بإطلاق الرصاص ابتهاجاً في العرس وأصابت رصاصته شقيقة (كريم) بمقتلها..!

انطوى الحب في ذلك اليوم على ذاته منكمشاً جرّاء الحدث المأساوي الرهيب الذي جعله لا يقوى على النظر لأعين الأحبّة.. أو التساؤل عمَّا سيحلّ به أو بهما.. انشغل الجميع بالجنازة وأحزانها وتحولت الأفراح

لأتراح.. والمباركات لمفردات عزاء.. واتجهت الأنظار للعروس التي اعتبروا أنّ دخولها إلى عالمهم قد حمل الفأل السيّئ لهم والفاجعة.. صرَّحت والدة (كريم) بصوتها البكائي وهي تشير بيدها نحو (زينة):

"لا نريدها بيننا، وجهها حمل لنا الشرّ."

لكنَّ والد (كريم) الذي كان يراقب ملامح ابنه.. أدرك أن مأساة ثانية أفصحت عنها ملامح (كريم) حين نطقت والدته بما سيؤدّي إلى حرمانه من حبيبته التي انتظرته لسنوات حرب ثقيلة الآلام في البعاد والقلق والمخاوف، وأخضعت الصعوبات التي اعترضت هذا الزواج كلّها، برغم المخاطر الممكنة الحدوث في تلك المرحلة المتوترة من الحرب..

وبعد أن أثّثا عشهما الجميل برغم بساطته، يهتزّ عالمهما ويطلُّ الفراق عليهما بسوط تعذيبه، يقبض على عنق الشاب الذي طالما كان رحيماً بوالديه وأخوته، ويسحب من وجهه لون الحياة بعد سماعه لما تفوّهت به والدته من كلام كالسهام وجهته لمشاعر وروح أعزّ الناس.. والذي قامت بخنقه عبره وآلمت قلبه العاشق، فألقى رأسه بين يديه وتراكمت همومه بوقعها الكارثي على كاهله..

وفجأة ينهض والد (كريم) بذلك التوقيت المناسب لمدّ حبل للنجاة.. ويبدأ حديثه بصوت وقور:

"لا نريد مأساة تعقب مأساتنا الأولى في هذا المنزل."

اغرورقت عينا (زينة) بالدموع.. أدركتْ أنها الضحيّة الجديدة التي ستُلقى في جوف وحش العادات المقيم في مستنقع المجتمع الموغل في القدم والإجحاف، وسيجرف فيض الدموع قصة حبّها الوحيدة الفريدة.. ويبدّد سنوات صبرها وانتظارها..

التفتت إليها والدة (كريم) وعقّبت على كلام زوجها:

"أصبتَ يا عزيزي فنحن لا يمكننا تحمّل مصيبة ثانية.. اكتفينا وشبعنا قهرًا وحزنًا من الأولى.. لذلك عليك أن تغربي عن وجهنا وديارنا."

حرّك والد (كريم) رأسه ذات اليمين وذات اليسار بحنق، وعاد لحديثه الرصين:

"أدرك ما ألمَّ بك وبنا من الحزن يا غالية لكن ليس هذا ما عنيتهُ..!

لأن المأساة الثانية التي لا يمكننا تَحمّل نتائجها ليست سوى فراق ابننا عن زوجته التي أحبها لسنوات.. وأعتبرها كابنتي التي عوضنا بها الله عن فقداننا لابنتنا.. فالأعمار بيد الله

وذاك قدر ابنتنا المرحومة وقدرنا.. و(زينة) هي التعويض الوحيد من الله عن حرماننا ابنتنا."

انتشل هذا الكلام (زينة وكريم) من لجّة الأسى، وأنعش في أعينهما نبض الحياة..

شعر (كريم) وكأنَّ والده قد أزاح عن صدره تلك الصخور الكاتمة لأنفاس آماله وألقى بها في واد سحيق..

أنار كلام الحق المكان والوجوه برغم المفاجأة.. فقد أشع وهج الحق وسطع في عقول أهل هذا الريف البسيط.. وأصبح حضور زينة تحضّراً لحياتهم.. وامتنعوا عن إطلاق الرصاص في أفراحهم لئلا تتحول لأتراح، وأطلقوا أولى رصاصات التحضّر على وحش التقاليد ليفنى في مستنقعه الذي سينتهي حين تتحول دموع الأحزان إلى شموس حضارة متوهجة..

لكن خبر استشهاد (كريم) قد أيقظ الأحزان والمواجع كلّها من رقادها، إنّ بعض الناس ترهق المأساة عقولهم خلال كوارث الأحزان.. فتختلّ لديهم أسس الرّحمة وتنهار من بعض القلوب مبادئ الودّ.. ويجدون بين حنايا تخلفهم الموروث الملاذ الآمن للتنفيس عن غضبهم.. فيسارعون بالانحدار إلى زمنه الحاضر أبداً في أذهانهم والإسراع بالعودة لذلك العهد البدائي.

ترنيمة من الورقة السادسة عشر

لم تستطع زينة البقاء في تلك البيئة التي تأبى مغادرة الجراح.. وعادت للعيش مع والدتها التي خسرت في بداية الحرب زوجها والد (زينة) وابنها الأكبر في انفجار مأساوي.. وبقيت تعيش مع صورهم والذكريات.

كان مع زينة طفلها، حصيلة زواج بناه نبض الحب وهدمه ويل الحرب..

اجتمعنا كلنا حول زينة لتخفيف مصابها، ورؤية ابن (كريم)

الذي كلما كبر به العمر شهراً، ازداد شبهاً بوالده..

تلك الألفة في هذا التقارب سمحت بعودة (زينة) تدريجيّاً للحياة الطبيعيّة.. برغم أنها قد ملأت جدران غرفتها في منزل الأهل بصورها المشتركة مع كريم، وباتت تلجُ عالم الصور بما يزيد عن تواصلها مع عالم صداقتنا على أرض الواقع كثيرًا، باستثناء بعض الجلسات التي يجذبها الحنين إليها من جديد.. فتشاركنا فيها صامتة مكتفية بالإصغاء للنّقاشات التي تدور بيننا وحضور بعض حفلات (راني)الموسيقيّة التي ترحل عبرها لعالم غير عالمنا..

التقينا معًا في (مقهى الليل) أثناء إحدى الأمسيات الموسيقيّة التي يشارك بها (راني) بالعزف على كمانه، كنّا برفقة (ياسمين) و(أنس).. أمعنت

ياسمين في تأمّلها لراني بتأثر شديد.. انتبه (أنس) لعبرات تغالبها (ياسمين)، ويسارع بإعطائها مجموعة مناديل ورقية سحبها بعشوائية... وقال متهكماً:

"جففيها (ياسمين)... تكاد تحرقني.."

ابتسم بودّ.. وبرغم شعوره بما تكنّه ياسمين لراني من مشاعر، غالبًا ما كان يتجاهل ذلك، ويظهر لي ولياسمين أنّه يميل عاطفيًّا نحوها.. -برغم إدراكه أنّ راني يبادلها إحساسها ذاته-

مستغلًّا طبيعة راني الكتومة التي طالما دفعته للتهرّب من الحديث عن الحبّ بحضورها، وقد دار النقاش بيننا مرارًا واستمرّ (راني) بسكونه الغامض..

اتفقتُ و(ياسمين) بأن الحكم على العاشق لا يتمّ بملاحظتنا لظواهر الأمور بل من خلال ردود فعله وسلوكه..

قدّمتُ لها وصفي للحبّ:

"الحب ندبة عميقة الغور، قد لا نلمحها برغم وجودها حقيقة لدى البعض.."

تأمّلني (أنس) بشرود، وحين التقت نظراتنا لمست ما جعل نظرته آسرة لإحساسي، لكنَّه التفتَ سريعًا لياسمين وابتسم لها، وغالبًا ما كان ينهي

حديثه بهمسٍ يمكثُ في وجداني.. وتحملني رومانسية كلماته إلى عالم أمنياتي:

"(راني) لا يحبّها يا (سيلا).. إنّه يكتفي بحب نفسه وموسيقاه.. فهو لا يعنى بتوقيت استيقاظها، وأغاني الصباح التي تفضّلها، وهل ترشف قهوتها قرب أزهار الكاميليا أم الغاردينيا.. أم أنها تفضّل ارتشافها قرب العصافير التي تتطاير فوق أقراص عباد الشمس؟!..

أتضع السكر، أم تفضّلها بمرارة الحزن، لاعتقادها بجذبه لهرمون الفرح الهاجع بخمول في أعماقها، كي يتصاعد ويمتزج بقهوتها، فتسكرها نشوة السعادة الصباحية التي تجعلها تنثر إشعاعات المحبَّة للمحيطين بها؟!..

وهو لا يأبه بسرّ اتصالها الصباحي بنا لنجتمع.. لا يدرك أنها تتصل بنا لتوقظنا من غفلة الحزن كي نستقبل لحظات السعادة معًا!..

أما لحظات حزنها فتقضيها وحيدة.. بين صفحات الكتب التي تعتقد أنها الدواء الوحيد لانقضاء حالة الحزن بسلام!.. لكنها تشاركنا أحزاننا فردًا فرداً.. وتهوّن علينا العسير بما أوتيَت من رقّة ومحبّة.. باختصار إنّها ياسمين، ياسمين فحسب!."

التزمتُ الصمت وحسن الإصغاء برغم شعوري الدفين بأنه يصفني أنا وليس (ياسمين)..! فقد بدا كعاشق يتحدث عن حبيبته.. لكن لم أستطع عبور مداخل حديثه بلا مزاح يعيدُ إليه توازنه الواقعي..

فعقَّبتُ:

"أمَّا أنت فتعنيك تفاصيلها كلَّها.. وتستحقّ لقب عاشق أليس كذلك يا ابن الملوّح؟!"

عَبَسَ بمرح ثم قهقه ضاحكًا وكأنَّه حصل على مبتغاه من حديثه الشجي ذاك..! أجاب:

"لا..! أنا صديق مقرب جداً فحسب."

ابتسمتُ وتأمّلتُ ملامحه وكأنني أراه من جديد.. فلم ألمح الغموض باديًا في عينيه يومًا كهذا اليوم، إنّه أنس الجريء.. المشاكس.. الواضح البسيط والغامض.. الجنديّ المغوار هاهو يبدي اضطرابه أمام الاعتراف صراحة بالحب.. وأنا أخفي هُيامي به كالعادة، وهو لن يدري بحبّي العظيم ومشاعري المتّقدة في هواه وسنبقى نعيش صراعنا النفسي الماثل في أعماق مشاعرنا في ساحات الحب.. وستبقى المعارك التي تتناهشها الحروب والدماء أثناء قيامها، أقلّ احتدامًا من تلك التي تلتهم بعضها البعض في قلوبنا الغارقة بالولوع..

تكتفي ياسمين بمنديل ورقيّ واحد لتجفيف دموعها المتأثرة بأحزان الموسيقيّ الرقيق (راني).. وتعيد الباقي لأنس.. يسألها (أنس):

"ما الذي أثار دموعك؟!.."

أجابت بهمس مرهف:

"تؤلمني ملامح الحزن المطلّة من محيّاه وموسيقاه.. وأنا ضعيفة في مواجهة الأحزان، أصبح كالظامئ الذي يهرع إلى الماء ويكتشف بعد فوات الأوان أنها كحول فإذ به يزداد احتراقاً واشتعالاً.. وها أنا قصدت المقهى معكم لنستمتع بالموسيقى الطروب وإذ بذاتي تنطوي على عالم خبيئ يكمن في مجاهل الحب والحزن والغموض.. أمّا مفاتيح هذا العالم فليست سوى تلك النظرة الحزينة التي تطلّ عليّ من عينيه وتجعلني أتوه.. لا أعلم لماذا أشعر أمام (راني) باضطراب في اختلاجات نبضي ويتعذر عليّ التحكم بانفعالاتي وأشعر بالذنب وكأنّني السبب الذي أغرقه في الحزن..!"..

ابتسم (أنس) لتعابيرها الشفيفة بودّ وأجاب وهو يبدّل نظره بيننا، بما أوحى لي أنّه يبثّها شكوى حبّه، رغبة في الحديث عن الحب منها وإليها حين قال:

"الحبّ وليس سواه من يباغت صمّامات أحزاننا الهاجعة بهدوء في ثنايا ضلوعنا.. لقد علمتني الحرب أن الحبّ هو الذي يجعل الحياة تستحق أن

تُعاش.. وهو الذي يحثنا على مقاومة العنف بشراسة لحماية أحبّتنا.. فننظر إلى البلد نظرتنا للمحبوب، كان (كريم) يتغزّل بالصفوف المتعرّجة للأشجار وكأنه يصف ضفائر حبيبته.. باختصار إنَّ من يتمكّن من تحريك شجونك وإحساسك الرقيق فهو المحبوب الذي لا يخامرك الشك بأنَّه من يمتلك مفاتيح سعادتك أيضاً.."

التفت نحوي وتابع:

"ولو أنَّني بالنسبة لراني لا ألمح ذلك الشغف بادياً عليه.. أرى أنه يوظف شغفه لفنه وأنغامه الشجيّة.. أمّا مشاعره نحو (ياسمين) فليست واضحة لي.. وألاحظ أنَّ (سيلا) تعنيه أكثر ويهمس لها بأسرار نجهلها.!"

علّقت (ياسمين) على موضوع همسات راني لي:

"كلّنا نهمس ببعض خصوصياتنا

لسيلا، لأننا نشعر أمامها -بسبب إخلاصها الشديد وكتمانها- وكأننا أمام مرآتنا..!

أثنى على إنسانيتي هذا الكلام من (ياسمين) ودعم ثقتي أيضاً بأنني جديرة بالصداقة..

برغم أن كلام أنس كان بمثابة دعوة لياسمين كي تشعر نحوي بالغيرة..!

إلَّا أنني شكرت الله على رجاحة عقل صديقتي التي تدرك أعماقي وتعي طبيعة علاقتي بالأصدقاء جميعًا وكم أحببتهم وأحبّهم.. ولم تكترث (ياسمين) لعباراته المتعلقة بشغف (راني) المبهم تجاهها..

كانت تصغي لكلمات الثناء ومفردات الحبّ التي يبديها (أنس) لها، فتبتسم بسطحية أحيانًا وبسخرية مرحة أحيانً أخرى أمام تلميحاته.. ولا تعترض على كلامه إلّا عندما يبيح مزاجها بذلك.

وكانت (زينة) تبتسم بحزن لذكرى (كريم).. لقد أصبحنا بعد رحيله متنفسًا لها..

تهمس (ياسمين) لي:

"كم أرغب بالنهوض والوصول إلى هذا الموسيقيّ الحبيب ومسح عبراته بيديّ وطبع قبلة على وجنته واحتضانه.. كي يشعر بحبّي العظيم له.. أريد أن تُشرق ابتسامة الفرح على وجهه وينسى أحزانه لنمنح حبّنا ما يستحقّ من الحياة"

وكان (أنس) يصغي باسماً فقال متهكماً:

"يا لحماقة العشاق.. هذا فنان (ياسمين).. وسرّ إبداعه يكمن في حزنه.. أما سمعت عن الحزن العبقري؟!..

ثقي تماماً أنَّ معظم العباقرة في الفن التشكيلي والأدب والموسيقى استفاد إبداعهم من أحزانهم وما كنّا عرفناهم لولا أنّ الحزن كان البطل المجهول لسيرة حياتهم الذاتيّة.. تأمّلي في حياة فان كوخ.. وانظري إلى أيّ مجد قاد حزنه أعماله!.."

اعترضت ياسمين على إشادة (أنس) بالحزن:

"لا أقوى على الاستسلام أمام أحزانه الجليّة..! إن الدموع دائمة التوقّد في عينيه وأخشى عليه من الاحتراق ونحن نتفرج على حزنه وهو يلتهمه ونكتفي بقول "كل العباقرة هكذا..!"

دهش أنس من حماسها.. وعقّب على كلامها:

"أنا أحبّ (راني) يا عزيزتي بما يفوق توقعاتك.. برغم إدراكي لعيوبه ولمزاياه الحميدة ونحن لم نكتف بالتفرّج..!

بل وقفنا إلى جانبه كأشقّاء له.. وهو الذي أصرّ على أنّ علاقته بالحزن حالة خاصة.. لم يسمح لنا التدخل بها..!"

ثم التفت نحوي قائلاً:

" أليس كذلك (سيلا)؟!"

أجبته بالإيجاب:

"(راني) يتمسك بأحزانه حقاً بشغف العاشق.. إنَّه يعشق الحزن ويجذبه لعالمه.."

ترنيمة من الورقة السابعة عشر

شغوفة أنا بحبّ (أنس) وألظّى في عالم أحزاني الخاصة.. وهو حزني الخفي الذي لا أسمح بأن يطلّ برأسه من شرفة قلبي.. لا أريد أن يلمحه أحدهم أو أن يلمح هو ذاته في جوهري حيث أخفيه كجريمة مكتملة ويصعب اكتشافها، وأكتفي بقربي منه كقربي من الجميع..

والآن أعيش آلام بعده وهو خلف قضبان الحزن..

ذات صباح باكر زارني وليس من عادته أن يزورني فجراً.. كنت كالسابحة في زرقة السماء بين تكوينات تدرجاتها اللونيّة.. أتوسد أحلامي وأغالب الكرى، ترفض أجفاني الإذعان للنوم، وأرحل عبر أفكاري حول ذلك السجين البريء.. أخاله قرب نافذتي، جاء يبثّني شكواه الموجعة.. ناجيته:

"اقترب حبيبي فلا جدران أو أبواب أو مسافات يمكنها أن تفصلني عنك.."

راح يتحدث وكأن صوته يصلني من زمن آخر، وقد تحوّل لنسيم رهيف وكلماته لعصافير بيضاء بمناقير حمراء صغيرة ملأت فضائي وراحت تُردّد صدى إحساسي الشفيف نحو ما جرى من مأساة حين قال:

"أريدك أن تثقي بي (سيلا) وتصدقيني إنّني بريء.. ولطالما أحببتها.. كما أحببتموها جميعكم.. فهل يُعقل أن....!"

وتحشرج الصوت بالبكاء..

لم أشكك في كلامه.. أكان كذباً أم صدقاً.. أصغيت لقلبي وأدركت أنه بريء حقًا.. فكيف يُطفئ المحبّ للضياء سراج الشمس بيديه..!

ولأيّ غد سوف يعيش ولمن؟ حين يحرق أحلام من أحبّهم آن تبرعمها..؟!

تعلّمت من القضايا التي يطلعني والدي على بعضها بأن أسباب الجريمة تبقى غامضة إلى أن ندرك الأهداف الحقيقيّة لها، ما احتجب منها وما ظهر.. وحكمنا السريع يوقعنا بالخطأ..

يتّفق الإنسان والطير في الدأب بحثاً عن الطعام في حالة الجوع، ومن الطبيعي أن يقتل الحيوان ليحظى بأسباب العَيش.. أمّا الإنسان الذي يقتل الرّوح عمداً بلا قانون وبدون حالات الدفاع عن النفس والأهل وكأنَّه في غابة.. فيصعب تصنيفه من البشر حتى ولو كان قد تعرّض لأقسى حالات الظلم..

إذا ذُكرت الإنسانية والمثل الرفيعة أمامي في مفردات عابرة .. سيتبادر لذهني اسمه ذلك المثالي الشجاع.. فكيف أتحمّل وقوعه في السجن ظلماً..!

كقربان آلهة في قبيلة بدائية.. يذهب هكذا ببساطة ضحية طقوس البشر، أدرك أنَّ الحكمة.. الحقيقة والعدالة قضايا حق دروبها واحدة.. لكنَّها لمّا تزل في ملكوت السماء.. والتي ألمح أنوارها قادمة لتنير ظلام العقول..

أذكر كلماته في (مقهى الليل) حين أصرّ على إقناع (ياسمين) بأنّه غصن شجرة مثمر أمّا (راني) فهو الطير الذي لا غنى له عن الغصن..

ضحكت ياسمين وسألته:

"وأنا و(سيلا) بماذا تشبهنا..؟!

أجابها بشاعرية:

"أنتما الشمس والهواء.. برغم قربكما.. أراكما كالأحلام المستحيلة.. أنا يتراشقني الهواء المثقل بالغبار أمّا راني فتلهو به رياحكما وأشعّتكما.. إحداكما حبيبته والأخرى صديقة أسراره وشجونه.. وندورُ في فلك هذا الكون.. طير وغصن وخيوط شمس تموج ما بين الرياح وغبار الهموم والمخاوف وأحزانها الناتئة تهوي بانفلات الصخر من جرف جبل يكسوه القتاد والشوك وأشجار السنديان.."

غرقت ياسمين في ضحكاتها فقال أنس متابعاً عباراته الانسيابيّة:

"استمري في الضحك ياسمين لأسهب في كلامي.."

شجّعته ياسمين:

"هيّا تابع.. هانحن نصغي بصمت.."

وتابع كلامه وهو يلمح شغفي للإصغاء إليه دون مطالبتي له بالمتابعة:

" قلبي جبل صخري لا أكترث بانهدام بعض صخوره.. سيحفر انهدامها دربي الجديد.. وألمح فيه برؤية جديدة خضوع المحال ونيل المنال وبلوغ الهدف.. سأمضي نحو الصواب برغم القلق..!

لتلك الصخور مصيرها الجميل مهما بلغت عثرات الدروب..

ستغتسل في النهاية إما بنهر أو بحر ما..

ستعكّرني لبرهة زمنية محددة ثمَّ سأنهض بعدها لصفاء عهد كالسماء بعد المطر.."

عقّبت (ياسمين) على كلامه:

"صحيح أنني أرحل مع كلماتك لكنني صدقاً أجهل ما يدور خلف هذا الرأس الجميل وتلك النظرة المراوغة الماكرة..

أكاد أتوه حقاً..! كيف يتفق أن تتسم ملامحك بالإنسانية المثالية والغموض في آن..؟!"

يميل بوجهه عابساً ويرمقها بنظرة عاتبة ويقول:

"أترين المكر في نظراتي؟!

ترتبك (ياسمين) لكنها لم تكفّ عن الضحك.. إلى أن أصبنا جميعاً بعدوى الضحك..!.

ترنيمة من الورقة الثامنة عشر

(راني) -المشغول بالعزف على كمانه- رمق ضحكاتنا بنظرة عتب لأننا نثير الشغب بدلًا من الإصغاء لعزفه الجميل..

قلت:

"علينا تمالك أنفسنا.. اصمتوا جميعاً.."

وساد الصمت، وعلت الموسيقى..

وحدها نوافذ قلبي المشرعة لرياح الحب بقيت تصفّق لمهبّات مشاعري الحزينة..

على قلبي أن يتمالك وتيرة نبضاته الخافقة لحبّ من يصف قلبه بالجبل الصخري.. وأرى أن صخوره صلدة غير نفاذة لأحاسيسي المكبّلة بقيود وجداني، والتي تحاول الانفلات من قيدها بعد كل نظرة باسمة من عينيه.. برغم أنّني أقوم بإقناع مشاعري مراراً بأنّه لا يبادلني إحساسي وعليّ الانشغال عن هواه، فتزداد جنونًا به، وأزداد تعقّلًا في كبح هذا الجنون..

تتحرك أقلامي وتنقش ما يدور في مجاهل أعماقي من معارك وأعاصير تلتفّ الأوراق على توقّد حبّي.. وتشتعل رسائلي العاشقة لاهبة.. في أحلك لحظات الغروب، وينسدل المساء بظلاله الداكنة متكدّساً أسدافًا تغمر حديقة لهونا المليئة بأريج الذكريات الدائمة النبض مع تماوج الورد على

مقاعدنا قرب أقفاص عصافيرنا الملونة المجاورة لشجرة العطر وأنجمها الصغيرة البيضاء..

ويركن المكان لهمس الحنين حين تتوقف العصافير عن الزقزقة في سكون المساء.. حيث تلوذ إلى زوايا أقفاصها لتنام ..وأقفاص صدري تشرع الباب لطيورها لترافق رياح الليل علّها تصل لمكانك القصيّ في قفص الظلام والاتّهام.. حيث الريبة تمسك بعنق الشمس وتنهال تعذيبًا في جسد البراءة..

في الصباح أتأمل أوراق سهرة المساء التي تسكّعت في أتون الحب.. وعرّجت نحو مدارج الشقاء.. ثم أعادها الصباح إلى محاراتها الخفية..

بعد أن بنت قصورها الرملية على شاطئ المأساة.. امتدت شفاه أمواج الخيبات وابتلعتها..

تجولت والدتي بين أزهار الحديقة أزالت عنها الأوراق اليابسة والأعشاب الطفيلية وروتها..

إنها عاشقة الورد أمّي الشغوفة بشتى صنوف الورد، ولا تخلو أحاديثها الصباحية أو المسائية من ذكريات وقصص الورد.. والتي باتت مفرداتها ومصطلحاتها اللغوية تتسم بشذا الزهور المتناثرة مائدة حوار في جلساتنا

المنزلية.. وبرغم إدراكنا أنَّ ما نتعلق به له تفسيراته التي تغوص عميقا في لا شعورنا، لم ندرك سرّ تعلقها الكبير بالورد.. لقد حوّلت تشكيلة أزهار الحديقة لمملكة ثرية بأميرات الزنابق والورد والريحان المتوجة بالياسمين المتألق بالضياء.. تعلّمت منها لمس الأزهار بلطافة متناهية.. لأحظى بمتعة الحفاظ على جمال الطبيعة..

ترنيمة من الورقة التاسعة عشر

في روضة ملتقانا الجميل والزمن الذي أطلقت عليه لقب (زمن كريم) اجتمعنا لتناول الطعام بين الأزهار تعلَّم أصدقائي جميعهم حسن التعامل مع الورد.. لأن لوي عنق وردة بالنسبة لوالدتي سيّدة العطر -كما ألقّبها-، كتمزيق قطعة من قلبها.. وذنب لا يغتفر ويحاكي بنظرها أكثر الذنوب شناعة.. فنعيش طقوس حزن مأساوية تجعلنا نلوم الرياح والزائرين، ونُرمى بنظرات الملامة التي تحوّل العتاب لأصابع اتّهام..

وحده (أنس) المتمرد العنيد دائمًا.. هو من كان يُتلف الورد ونحن من يتلقى العقوبة.. مستغلاً حبّ والدتي له ولمرحه المحبّب.. كان ينثر الأزهار على شعري وقلبي.. ويسارع (كرم) و(ياسمين) لجمع الورد وإخفاء آثاره عن والدتي..

وخلال جلسة جميلة تحت شجرة العطر، عزف لنا (راني) مقطوعته الموسيقية الجديدة.. وحدّثنا عن الألحان العالمية التي يطيب له الاستماع لها وحفظها في مكتبته الموسيقية.. ثم أخذه الشرود إلى عالم بعيد.. فنهض كمن يلبي نداء شخص ما.. واتجه نحو الباب كعادته البلهاء القديمة التي طالما أغاظنا بها وقال: " تأخرت كثيراً يجب أن أذهب..!"

ويُصمُّ سمعه عن الإصغاء لما نقول أثناء ذهابه.. ويتّجه بصمت وبشكل مباشر نحو باب الخروج ثم يغلقه خلفه بهدوء ويمضي..

كان (أنس) منشغلاً بقطف الزهور.. أدهشه الرحيل المفاجئ لراني قال:

"اتفقنا على تناول الطعام معًا ما الذي جعله يُغيّر رأيه فجأة..؟!.."

ولم ينتظر (أنس) إجابتي.. نثر أزهاره على شعري.. أثار ضحكاتنا في البداية أنا و(كريم) و(زينة) و(ياسمين).. وهذا ما كان يعجبه من فقرة بعثرة الزهور لخلق جو من المرح بيننا.. لكنه بعد ذلك أثار حنق الجميع لأنه سيضطرنا لعمليّة إخفاء تلك الفوضى قبل مجيء والدتي..

عنّفته (ياسمين) هامسة:

" يا للغلاظة..! ما الممتع في هذا هيّا ساعدنا في التنظيف قبل حضور والدة (سيلا).."

فيجيبها ضاحكًا:

"أحظى بمتعة كبيرة حين أتوّجُ ضفائرها الكستنائية الجميلة والمبعثرة على أكتافها بالورد.. انتظري لأصورها.. دعيها قليلًا.."

أحببت شعري حين وصفه بالجميل.. ومن يرى معاملته لي ويصغي لكلماته في وصفي واهتمامه بالتقاط صوري، سيعتقد أنني حبيبته.. وهو يوحي لي دائماً أنّ (ياسمين) شاغلة أفكاره وقلبه.. برغم همسها لي بأنّه كاذب:

"كاذب يا صديقتي من يدّعي محبّتي ولا أشعر نحو همسه وعطره سوى بالمشاعر الأخويّة.. فلا تخفى على رهافة حسّي ملامح العاشق.."

ابتسم قلبي، ولاذت ملامحي بالجمود أمّا مشاعري الخفيّة فرحلت به إلى عالم آخر.. وراقصته بفرح عاشقة هائمة حين برق وميض اهتمامه.. لكنني أقنعت إحساسي بالمكوث في أعماقي لئلا يُثقل قلبي جليد أوهامي..

فقد تكرّر نكرانه لما يلمع في أعيننا حين تلتقي، بجرأة وقع المطر على نافذتي في شتاء الحنين..

ناديته:

"(أنس) كفّ عن التصوير وساعدنا على إنهاء ما صنعته من الفوضى.. يجب أن نخفي آثار جريمة قتلك لأزهار والدتي..!"

لملمت (ياسمين) و(زينة) الأزهار عن شعري وساعدها (كريم) و(أنس)الذي اتّهم شعري بجذب الأزهار حين قال:

"المذنب الأساسي هو شعرك (سيلا).. فهو يقوم بإغراء الأزهار وبالتالي جذبها إليه.. وجلّ ما أفعله أنا هو اختيار الأزهار المناسبة لشعرك.. ثمّ ألا تعلمين أن هنالك حالة من التقمص تسري على البشر والنبات في آن؟!

عدنا للضحك وقالت ياسمين:

"مستحيل أنت أنس لماذا لم تجرّب التقديم للتمثيل المسرحي؟!.. الكوميديا تناسبك جداً.."

وسألته بدوري:

"تتحدث عن التقمّص.. وما علاقة ذلك بالورد.. وهل يُعقل هذا المزاح؟!

قال (كريم) بتهكّم:

"سيبرر جرائمه بحق الورد بطريقة فلسفية مراوغة كعادته.."

ترنيمة من الورقة العشرين

رمقنا (أنس) بنظرة جديّة يخالطها ابتسامة متوارية ثم قال:

هذه الرؤية ليست رؤيتي الشخصية بل هي رؤية العالم الفيزيائي (جان شارون) الذي يرى أن أجسادنا عبارة عن خلايا وإلكترونات.. ولكل واحدة من إلكترونات جسدنا التاريخ الخاص بها قبل أن تتمثّل في أجسادنا.. و ربما كانت تخصُّ بشراً أو نباتاً أو غير ذلك من مكونات الأرض.. ولها ذاكرتها الخاصة.. وهذا يفسر لي سرّ انجذاب الورد لضفائر (سيلا).. وقد تكون ثمّة علاقة تقمصيّة تربط ما بين شعرك والورد (سيلا).. اسألي إلكتروناتك..."

وختم حديثه ضاحكاً وثبّت نظره في عينيّ ليلتقط ردّة فعلي تجاه ما تقدّم به من تحليل يبرّر فعلته..

لكنّني انتبهتُ لذلك فلم أسمح بأن يجد ما يبحث عنه في عينيّ من التعابير سوى بعض المفردات والعبارات الجديّة البعيدة عن أحاسيسي المتوارية..

أشعر بالحب نحوه بغضّ النظر عن حقيقة مشاعره..

هل يحبني ويتظاهر بحبّ غيري..؟! وأنا لا أرى سواه في الوجود..!..

لا أعلم.. ..!

كل هذا لا يهمّ، تعبتُ.. لو يقوى المرء على التوقف عن التفكير متى رغب بذلك.. لكنَّ العقل دكتاتوري الطباع.. المهم ألّا أسمح لمشاعري أن تضعني في دنيا الحب سوى بمكانة تليق برهافتي في عالمه وبإحساسي ..

تداركت نفسي وغادرت شرودي وقلت:

"وهل تنتمي إلكتروناتي لعالم الورد؟!.. الله!.. كم هذا جميل ..!

ضحك (أنس) بودّ.. وتأملني بنظرة تكاد تلامس نظرة الأب لطفلته.. وقال:

"علمك عند الله.. أراك تشبهين الورد حين تتكلمين ويهمس الشذا من ثنايا صوتك.."

ثم تدارك كلماته التي تحولت لغزل معلن وأردف منسحبًا من غزله:

"وقد يكون السبب في ضوع هذا الشذا هو حضور (ياسمين) برفقتك لأنها مورد العطر.."

ورفع يده مودّعاً بتحية مرحة شقية:

"إلى اللقاء يا سليلة الأزهار.."

الفصل الخامس

في المقهى كان (راني) يعزف آلامه بكمانه.. لقد جذبته والدته إلى فنّ الكمان وموسيقاه الشجية لكنها لم تعلم أنها ستلج يوماً إلى جوف نغمات ألحانه.. فيعزفها بكاء الصمت في روحه.. كانت أحياناً تغني بعض الأغاني الرومانسية الهادئة أجنبية أو عربية.. حدثتني والدتي كم تحنّ إلى تلك الأيّام، حين كانت تذهب مع والدي لحضور الحفلات الموسيقيّة التي تُقام في (مقهى الليل) لوالدة (راني) (سهى) التي تحييها بعزفها الشجي على الكمان وتقوم بأداء بعض الأغاني الرومانسية الرقيقة هي وصديقتها والدة (أنس) (نيرمين) التي تعزف على البيانو ولم تزل إلى الآن العازفة الوحيدة للبيانو في المقهى

وتسمو الألحان بأحاسيسنا في بيت (أنس) مع انسيابية موسيقى البيانو الذي تراقصه أنامل والدته التي تصغي لما نطلب من النغمات الشرقيّة والغربيّة من خلال عزفها الآسر..

ترنيمة من الورقة الواحد والعشرين

ذات يوم دافئ من أيام الربيع كنت برفقة (ياسمين) في منزل (أنس) نصغي لمعزوفة جميلة على البيانو كانت تعزفها والدة (أنس) وحين أنهتها، روى لنا (أنس) ما استفزّ والدته.. لقد اتّهم (راني) بالجنون لأنّه هجم في الطريق على فتى كان يضرب شقيقته، وكاد (راني) يدميه غير أنَّ (أنس) استطاع إنقاذ الفتى.. لكن بصعوبة وهذا ما أغضبه وأدهشه..!

تغيّرت ملامح والدته وبدت حزينة جداً وقالت موجهة حديثها لأنس: "أنت لا تعرف شيئاً عن حياة (راني) ومعاناته، وجلّ ما تعرفه أنه يعيش مأساة فقدان والدته.. والحقيقة أنه عاش المعاناة في حياته منذ الطفولة، بل ولد في قلب المأساة..."

ناشدناها أن تروي لنا ما نجهله عن حياة (راني).. وافقت بعد أن اشترطت علينا ألّا نقوم بتذكيره بدفين ذكرياته.. وعدناها باحترام ذلك لكنّها أثارت فضولنا أكثر لأنَّنا نعلم أنّ أعظم أحزان (راني) تتعلق باختفاء والدته وحرمانه من حنانها، فهل لديه المزيد من الأحزان..؟!..

بدأت والدة (أنس) بسرد خفايا عالم (راني) المحتجبة:

"في بداية التسعينيّات تعرّفتُ على العائلة التي ستنجب صديقتي (سهى) ابنها (راني) في كنفهم.. وكان جدّ (راني) من المدمنين بآفتي التبغ والخمور..

ولا يمتلك عقله آن الغضب، بالإضافة لنظرته المجحفة بحق النساء، فكان يُفرّق بين ابنه وابنته التي ألغى إرادتها وسلّم زمام أمورها لشقيقها المشابه له بمختلف السمات والإدمان.. لكن جدّته تمتّعت برجاحة العقل حيث أدارت متجراً صغيراً للورد.. هو عبارة عن غرفة من المنزل مطلّة على الشارع وكانت تلك السيّدة من النوع الذي ينحني لعبور العاصفة ولا يمنحها الفرصة لكسره برغم أنَّها غالباً ما استسلمت للأمر الواقع واستكانت لانهزامها في معظم المواقف هي وابنتها (رويدة) عمّة راني الجميلة المشرقة دائماً والتي استقبلت أزهار الربيع وبداية شبابها في قصة حبّ رائعة وبقدر روعتها موجعة..!

كانت النسائم تحمل أريج الورد وتتسلل من حديقة مقابل منزلها.. تضوع عبر نافذة غرفتها الصغيرة المضاءة برغم انهيال الظلام إلى ما بعد منتصف الليل، حيث يعزف الحب سيمفونية استقبال أولى حالات التوق والوجد لشابة يافعة مستلقية على فراشها تستمع للأغاني الرومانسية من آلة تسجيل قديمة وتتأمل جدران غرفتها الممزقة ولا ترى فيها سوى صورة للحبيب رسمها خيالها الحالم حتى بدت لعينيها أجمل جدران في الوجود.. اسمه (سرور) وهي (رويدة) .. كانت تراه كل يوم في ذهابها وإيابها على طريق

المدرسة.. أخبرها أنه يقف يوميّاً أمام منزله انتظاراً لمرورها ورؤيتها.. وقد وضع لتوقيت مرورها نغمة تنبيه في ساعته وجعله موعداً مقدَّساً، وهي تهنأ كثيراً ويزدان يومها بمعنى اسمه حين تراه.. برغم أنها أصيبت بحالة من الخجل الشديد حين كلّمها للمرة الأولى وتلعثمتْ فلم تتكلم سوى بضع كلمات على عجل:

"ما اسمك..؟"

"(رويدة).."

"فقط..؟!.."

وأنا اسمي (سرور).. أنهيت دراستي للأدب الفرنسي وسأذهب قريباً لمتابعة دراستي في فرنسا"

قالت:

"تشرفت بمعرفتك... لكن.. أرجو المعذرة.. يجب أن أعود لمنزلي الآن.."

ولم تنتظر سماع كلماته الأخيرة.. بترت اللقاء وهرعت إلى المنزل..

وفي المحاولات التالية حدثها عن نفسه أكثر:

"لدي عم وحيد في فرنسا وهو الشقيق التوأم لوالدي ويطالبنا دوماً بالسفر ليعملا معاً هو ووالدي ولم يقرّر والدي السفر إلّا حين تأكد أنّني سأسافر

للدراسة ووجهتي هي "فرنسا" بمساعدة عمّي وقد وجد الفرصة سانحة لإرضاء والدتي التي يصعب عليها الفراق.. لدي شقيقة واحدة اسمها (لورا) وهي أختي وصديقتي.. درست التمثيل في المعهد العالي للفنون المسرحية.. تحبّ السفر والموسيقى وتعزف على آلتي الكمان والعود وتغنّي بصوت فيروزي الإحساس.. اشتركت بتمثيل العديد من المسرحيات.. حدّثتها عنك وهي ترغب بالتعرف عليك فما رأيك؟.."

"يسعدني التعرف عليها بدون شك.. لكنَّ وقتي الخاطف لا يسمح لي دائماً.. وينبغي عودتي السريعة إلى المنزل.."

وما كان يدهش (سرور) دائماً أنَّها تقول "عليَّ العودة للمنزل...!"

ويبدو عليها التوتر وتكفّ عن سماع كلماته وتهمّ بالعودة السريعة إلى منزلها..

وحين عرّفها على شقيقته (لورا).. ازداد فرحها لشدة إعجابها بشخصيتها المنطلقة، المرحة.. وتآلفتا وكأنهما أمضيا العمر معاً..

حدثتها (لورا) عن والديها اللذين لم يزالا يعيشان على الحبّ برومانسية العشاق.. أما (رويدة) فكانت تصغي أكثر، ولكي تتهرّب من الحديث عن حياتها البائسة أخبرتها أنها قد قرأت أمس أقصوصة مدهشة في إحدى

المجلات وراحت ترويها لها، وكان أسلوبها في السرد يفوق جمال القصة إذ جعلته تعبيريّاً انفعالياً مع الأحداث، الأمر الذي دفع (لورا) للقول:

"إنّك تملكين موهبة التمثيل يا فتاة فما رأيك لو تعملين معنا في مسلسلنا الجديد؟"

ضحكت (رويدة).. وانتهت ضحكتها بنظرة حزينة وقالت:

"لا يا عزيزتي لا يمكنني ذلك.. بيئتي لا تسمح.. أقصد عائلتي..."

أجابت (لورا):

"نعم أدرك أن بعض البيئات في مجتمعنا لا تعلم حقيقة عملنا بدقة فتهاجمنا.. "منْ جَهِلَ أمرًا عاداه".. لا بأس حبيبتي.."

وسافرت عائلة (سرور) إلى فرنسا.. وبقيت (لورا) هي المرسال السعيد بين الحبيبين بعد أن تعدَّدت الذكريات السعيدة في جنّة الحبّ، وأبقت (رويدة) ساهمة في ملكوت بهيج، تبتسم لجمال الذكرى بمرور الأيام، وتساهر النجوم يوميًّا إلى ما بعد منتصف الليل..

وفي ليلةٍ ربيعيَّة لطيفة النسائم.. كانت (رويدة) في طريقِ عودتها من المدرسة.. فاجأها (سرور) بعودته للبلد وانتظار مرورها كما في السابق:

"حبيبتي عدت لاستكمال بعض الأوراق الهامة.. أريد بعض وقتك، هل هذا ممكن ؟..اشتقت إليك.. وأيضاً أريد وداعك.. قبل عودتي إلى فرنسا.."

لكنّها لا تقوى على التأخر المفاجئ.. لئلا يشكّل الأهل قضية بحث عنها تضجُّ بها المدينة كلها..

شعرتْ بالحزن، ثم بالهلع، خوفاً من تأخرها الذي يسبّب حالة شجار في المنزل.. فاعتذرت منه واتفقا على موعد قريب.. قبل سفره بيوم.

في الليلة السابقة للموعد، لم ترغب (رويدة) بالسهر الطويل.. استمعت لأغنية طربيّة لكوكب الشرق (أغداً ألقاك) ومنّت النفس بالسعادة القادمة مع الصباح.. وأغفت على حلم ورديّ.. وبقيت الأغنية تصدح من آلة التسجيل القديمة..

وفي الصباح الباكر استيقظت والدتها، دخلت غرفتها، دثّرتها جيداً وأغلقت آلة التسجيل.. ثم التفتت بحزن إلى فراشين خاليين -كانا للشقيقتين الكبيرتين لرويدة اللتين تزوجتا وأصبحتا في بلدين بعيدين- أعادت ترتيبهما كعادتها في كل يوم ثم خرجت من غرفة (رويدة) وأغلقت الباب خلفها.. ودخلت غرفة (سالم) -ابنها البكر الذي ينام بمفرده بعد

خصام زوجته سهى -عازفة الكمان التي ستصبح والدة صديقكم (راني) فيما بعد.. انتظروني إلى جلسة قادمة لأكمل لكم ماذا جرى-"

ترنيمة من الورقة الثانية والعشرين

وفي الموعد الجديد مع والدة (أنس) كنت أوّل من حضر.. ثم حضرت (ياسمين) التي تهتم بمعرفة ما لم نسمعه في يوم من الأيام من (راني) طيلة صداقتنا معه.. ورحَّبَ بنا (أنس) كثيراً وخاطبني ضاحكاً:

"عذراً من ضفائرك الجميلة (سيلا) فليس لدينا أزهاراً طبيعية لتجذبيها إليك.. أرجو أن تعجبك هذه الوردة الصناعية.."

ورشق وردة قماشية جميلة نحوي.. فأمسكتها وأعدتها إلى (الفازة) بقرب البيانو اللامع الجميل لئلا أشاركه في إغضاب والدته -التي تعنى كثيراً بأناقة منزلها- وسادَ الصمت المكان لمتابعة ما ترويه لنا والدة (أنس):

"دخلت والدة (رويدة) غرفة (سالم)، الذي يعمل عازفاً على إحدى الآلات الموسيقيّة التي ترافق الراقصة في المقهى الليلي.. ويعود للمنزل في الصباح وأحياناً يعود بعد عدة أيَّام، يمضيها برفقة صديقه (راضي) زميل عمله وصديق رحلاته المشبوهة لأنه يتعاطى المخدرات وينفق أمواله وأموال صديقه (سالم) على الملذات الشخصيَّة.. وهو يفوق (سالم) بالرعونة.. ويفوقه (سالم) بالوسامة.. كان (راضي) من النوع الساخر.. فلا يأخذ أمور الحياة وهمومها بمحمل الجد، ويقول لسالم:

"الحياة شجرة مثمرة يا صديقي.. وما عليك سوى محاولة تسلّقها بشتَّى الأساليب لتصل إلى ثمارها الشهية حيث المتعة"

كان من النوع المتسلط.. يتلذذ بمنظر المدمنين وهم يتذلَّلون له ويتمسحون بأذياله ليحصلوا على جرعة مخدرات.. ويستغل ضعفهم لسدّ ثغرات نقصه واستمتاعه بشعور العظمة..

وهو يصاحب (سالمًا) وغيره لأنَّ مطامعه ورغباته تقتضي ذلك.. ويجري في منزله الفواحش بأنواعها..

لا يهتمّ بأهلٍ له أبدًا.. ولا يعلم عن أخبارهم شيئًا ولا هم بأمره يعلمون، انفصل عنهم منذ زمن واستأجر هذا المنزل لينعم بحياة ماجنة.. كان (سالم) يقول له وهو بحالة خدر وسكر :

"لا أحد في الدنيا يرضيني كما ترضيني أنت يا (راضي)"..

ويجيبه (راضي) مهمهمًا:

"اذهب وأحضر المال لأرضى عنك أنا بدوري".. ويقهقهان معًا..

كان (سالم) في بداية غفوته حين دثرته الوالدة جيداً.. وأَسِفتْ لعلاقته المضطربة مع زوجته الجميلة (سهى) التي جاء بها الحبّ إلى عالمه ولا شيء

سوى الحبّ، وعاشت معه في بيت العائلة.. وأحبّت والدته وشقيقته (رويدة) كثيرًا..

تلقّى سالم تربية خاصة من والده.. تمنحه حق التسلّط على نساء أسرته منذ نعومة أظافره .. وهو على خصام دائم مع شقيقاته.. وكان والده نادلًا في مطعم تقام فيه الأفراح يوميًّا.. وهو لا يستطيع -بسبب طباعه- منح أفراد أسرته شيئًا من الفرح أو السعادة.. وغالبًا ما يأتي إلى المنزل وهو بحالة سكر.. وينفق أموال عمله على الخمور ومستلزماتها.. وهذا ما أورثه لسالم الذي يزمجر غضبًا في المنزل لأتفه الأسباب.. وهذا ما أدّى إلى خصامه مع زوجته (سهى) التي يغار عليها غيرة هيستريّة ولولا حاجته الدائمة للمال الذي تجنيه من العزف على الكمان لمنعها من العمل..

في ذلك الصباح لم يعكّر صفو صباح والدة (سالم) شيئًا بقدر تلك الرائحة المليئة بالتبغ الغريب والكحول الكريهة المنبعثة من غرفة (سالم)..

خرجت الوالدة من غرفته وفوجئت برويدة المستيقظة بنشاط وألق يشع بسعادة من عينيها الجميلتين.. قالت الوالدة:

"هل أيقظتك حين دخلت غرفتك؟"

أجابتها:

"لا.. إنّها زقزقة العصافير التي تملأ فضاء الحديقة وحدها من أيقظني.. لدي درس إضافي في هذا اليوم يا أمي.. أرجو أن تصل هذه المعلومة لابنك المخمور المقامر أو الموسيقي السكّير..! لئلا يتحفني بتسلّطه المقزز.."

أكثر من تعبير يوحي بالأسى عبَّرت عنه ملامح الوالدة.. وقالت:

"كفّي عن التلفظ بهذه الألقاب..!"

أجابتها (رويدة):

"لكنك تدركين جيدا أنها ليست من الخيال.. إنّها حقيقية مع الأسف..!"

قالت الأم باستسلام ومحبّة:

"أعلم .. لكن لا أحبّ هذه الألقاب أبداً..

انتبهي لنفسك.. أنت جميلة جداً يا ابنتي.. حافظي على نفسك.. فألسنة الناس لا ترحم.. عودي سريعاً بعد نهاية دروسك.."

أجابتها وهي تقبلها بسعادة:

"حاضر يا غالية لن أتأخر.. لكن تذكّري ولا تنسي أبداً درسي الإضافيّ."

احتضنتها الوالدة وقالت:

"لن أنسى .. حماك الله يا ابنتي.."

ترنيمة من الورقة الثالثة والعشرين

وسارت (رويدة) بسرعة وكأن شخصاً يطاردها، هل هذا بسبب انفعال الفرح.. أو ربَّما الخوف، أو كلاهما..!

وفي طريق عودتها من المدرسة كان (سرور) بانتظارها، مشرق الملامح استقبلها بابتسامة وادعة..

دخلا متنزَّه جميل.. كان بريق رذاذ المياه التي تتناثر على الأعشاب والأزهار فيه يُحاكي بريق أعينهما العاشقة الحالمة.. جلسا بجوار ملاهي الأطفال، ابتسما لطفل وطفلة يتأرجحان قربهما، أيقظا فيهما طفولة لم تزل هاجعة في أعماقهما..

لاحظ (سرور) ارتباكها وارتعاش يدها.. والقلق يطلُّ جليّاً من عينيها.. قال:

"ما بك حبيبتي..! إلى متى سيستمرّ هذا الخوف يعتري محيّاك الجميل؟!

عدَّلت جلستها.. وأجابت:

"لن أكذب عليك.. أنا خائفة حقاً.. لأنني لمحت أحد الأشقياء قبل دخولنا إلى هنا.. وهذا الشقي هو (راضي) صديق أخي (سالم) ويفوقه جهالة.. آمل ألاّ يكون قد رآني.."

ابتسم (سرور) بود:

"أريدك أن تنسي الخوف ونحن معاً.."

وتجيبه بنظرات زاد الحزن سحرها وبصوتها الهامس الذي بدا وكأنها تكلّم نفسها:

"أتمنى نسيان المخاوف ونحن معًا.. لكنها تزداد شراسة وتتفاقم مع مرور أعوام عمري، تنمو وتتنوّع وتتزايد عاماً إثر عام..!"

يحدثّها (سرور) برصانة مطمئنا:

"أوشك عمر هذا التوتر على الانتهاء حبيبتي.. ماهي سوى مدَّة قليلة من الزمن ويثبت وضع عملي في سفري وأعود إليك مع حلول العام الجديد.. وأزور بيتك بجرأة لمقابلة والديك وخطبتك منهما.."

تجيبه:

"والدي متوفي.. ستقابل والدتي وشقيقي الأكبر (سالم).. إن شاء الله..!"

قال: لروحه الرحمة.. أعتذر حبيبتي.."

ابتسمت بود وتاهت نظراتهما العاشقة بتوهج ضياء الحب.. وتأمّلت (رويدة) تفاصيل المكان بشغف الحب.. فالأشجار ليست كتلك التي تراها عادة.. لقد منحها الحبّ الألوان والحركات الخاصة بعالمه الساحر.. واختلفت أشكال المقاعد والناس والأطفال.. أضفى عليهم الحبّ هالته القدسية..

عاتبها (سرور):

"أين ذهبت بفكرك وأبعدت نظراتك عنّي..؟!"

همست:

"أنت تشغل فكري وقلبي.. فإلى أين سأبتعد وأنا..."أنّى اتجهتُ أراكَ"...؟!"

تُشرق ملامحه بالفرح ويقول:

"حبيبتي... عندما تتكلمين.. تحمل كلماتك جلستنا الجميلة هذه على أجنحة الحب والخيال والأحلام.. فأرى الوجود بستان ورد وأفراح..!"

وفجأة نهضت (رويدة) بعد أن نظرت إلى ساعة يدها.. وقالت:

"حبيبي .. وهاقد مرّتْ الساعة في قربك كالثّانية.. آن أوان عودتي للمنزل.."

يمسك يدها ويحثّها على البقاء:

"أعترض على هذا الرحيل المفاجئ.. ابقي قليلاً.. غداً يوم سفري..!"

داهمها شعور الأسى وقالت معتذرة:

"حبيبي.. اعذرني.. أنت لا تعرف مدى صعوبة وضعي في المنزل ومدى قساوة (سالم) وظلمه..

إنَّ علاقاته السيّئة مع بعض النساء الفارغات قد جعلته يسيء الظنّ بالنّساء على وجه العموم.. قلبهُ لا يعرف الرَّحمة.. غضبهُ حالة من الهيستريا..! ولو علم أنني أحبّ لأعدمني.. !"

علت الدهشة ملامح (سرور):

"ألهذا الحد.. ؟!.. هذا ليس أسلوبًا سويًّا للعيش..! أحزنني جدًا ما تُخبريني به حبيبتي..!

لكنّها مدّة قليلة من الوقت وسوف يصبحُ هذا الظلم من الماضي حين نجتمع بسعادة إلى آخر العمر.. أحبيني دائماً حبيبتي.. ولا تكترثي لمخاوفك من (سالم).. الحبّ هو أبسط حقوقك كإنسانة.."

وتسطع ابتسامتها.. وتتوهج ملامحها الحزينة.. تقول:

"حقوق..؟!.. (سالم) لا يعلم أنّ للنساء حقوق.. وهذا ما تعاني منه زوجته الموسيقية الجميلة (سهى) ولولا تقديسه للمال لحرمها حقوقها كاملة.. لكنّها ليست ضعيفة وقامت بتهديده حين قالت:

"إن وقفتَ عائقاً بوجه عملي سأنفصل عنك.."

برغم حبّها الكبير له.. فرضخ لئلّا يخسرها..

أتركك برعاية الله.. حافظ على نفسك في الغربة ولا تنسى حبّنا العظيم.. ولا تتأخر عليّ.. أحبّك جداً، سأنتظرك.."

وبعد وداع خفّف الأمل باللقاء القريب من وقعه، خرجا من المتنزّه واتفقا على السير في اتجاهين مختلفين لدرء خطر مرضى الرجعية والتخلف..

واستمرت بالالتفات نحو (سرور) إلى أن اختفى عن مرأى نظرها.. وما إن التفتت للأمام حتى ملأت الدهشة المريعة ملامح وجهها..! قالت بصوت متهدّج:

"أخي (سالم).. !.. كان هذا شقيق صديقتي جاء يأخذ دفتري لتطّلع أخته على ما فاتها من دروس بسبب غيابها..!"

قاطعها بنبرة غاضبة متوعدة:

"وتجيدين الكذب أيضاً..!"

أوقف سيارة وأمسك (رويدة) من كتفها ودفعها داخل السيارة:

"هيّا اصعدي.. حسابك في المنزل..!"

وفي المنزل انهال عليها بالضرب وهو يصرخ:

"سأدفنك اليوم.. وذلك البئر المهجور سيكون قبرك.."

هربت (رويدة) إلى سطح المنزل، تبعها وعاجلها بلكمة جعلتها تسقط على درج المنزل فاقدة للوعي.. وكانت الوالدة نائمة فترة الظهيرة واستيقظت حين سمعت صراخ (سالم) وتلك الجلبة العنيفة التي أحدثها سقوط رويدة.. فهرعت إليهما.. تلطخت درجات المنزل بدمها.. وامتقع وجه (سالم) بالشحوب..

صرخت الوالدة:

"ماذا فعلت بها أيها المجنون؟!

أحضر سالم إبريق الماء وسكبه على وجهها.. وحين تأوهت، أدرك أنّها على قيد الحياة.. فألقى الإبريق جانباً ودخل غرفته لتناول جرعة مخدرات..

مسحت الأم دماء ابنتها ونادته بصوت مهموم ومثقل بالألم:

"(سالم)..عليك إسعافها إلى المشفى فهي تنزف.. أصلحك الله أيها المجنون..!"

أخرج رأسه من غرفته وتكلم بفظاظة وبلادة إحساس:

"اطمئني بالاً.. !.. ابنتك بسبعة أرواح.. لقد نالت أقلّ مما تستحق.."

فصرخت الوالدة:

"أسرع بإسعافها إلى المشفى..!"

وفي المشفى.. اضطرت الوالدة للكذب كي تحمي ابنها من شرّ نفسه.. قالت:

"سقطت ابنتي على الدرج وهي صاعدة كي تنشر بعض الملابس، وأثناء سقوطها ارتطمت بمعدات معدنية ثقيلة موضوعة على جانب الدرج.."

سُرَّ (سالم) بهذا الكلام الذي يُخرجه من الموضوع ببساطة..

وبعد انقضاء مدة علاج (رويدة).. حضرت الوالدة إلى المشفى.. وفي طريقها إلى غرفة (رويدة).. استوقفها الطبيب المعالج لرويدة.. يريد محادثتها بأمر يتعلق بابنتها.. وفي هذه الأثناء.. تخرج الممرضة من غرفة (رويدة) وتوجه حديثها للوالدة:

"ابنتك تبكي بشدة وهي تطلبك..!.. ادخلي إليها من فضلك.."

تلتفت الأم للطبيب.. فيشير بيده إلى غرفة (رويدة):

"تفضلي بالدّخول.."

كانت (رويدة) بحالة بكاء كمن فقد عزيزاً.. وبنبرة مبحوحة حزينة.. نادتها (رويدة):

"أمّاه..! أنا لا أشعر بقدميّ.."

تذهل الصدمة والدتها..! وتحاول تهدئتها:

"لا يا صغيرتي.. هذا غير صحيح.. أنت متعبة.. وهذا كل ما في الأمر.. هيّا استندي عليّ وانهضي.."

صرخت (رويدة) بيأس.. هرع إليها الطبيب والممرضة لئلا تسقط.. وقام الطبيب بالشرح للوالدة عن الوضع الصحي الحالي لرويدة:

"لقد تمّ علاجها على أكمل وجه.. إنها بحاجة لجلسات فيزيائية.. وإلى همّة نفسيَّة عالية تدفعها للنهوض على قدميها من جديد.."

تعانق الوالدة (رويدة) وتبكيان معاً.. ويملأ صوت رويدة البكائي أرجاء الغرفة:

"لقد أصبحت مقعدة يا أمي..!.."

تتأوه الأم بقهر.. وتبتهل لله بصوت غسلته الدموع:

"كن معها يا أرحم الرّاحمين وأكرم الأكرمين.."

وحين عودة (رويدة) من المشفى، اجتمعت بعض النسوة قرب منزل أم (سالم).. وقد علمن بما جرى لرويدة.. وبعضهن من سمعت شجارها مع شقيقها (سالم) الذي يحمل شقيقته وهو مقطّب الجبين وعاقد الحاجبين.. يدخلها إلى غرفتها.. يلقي بها على سريرها وهي متخشبة..

وكمن لا يعنيه الأمر.. يرتب هندامه ولا ينسى عطره.. ويهمُّ بالخروج ملتفتاً لوالدته:

"سأعيد (سهى) إلى المنزل.. إنها حامل.."

برغم أن عبارة "سهى حامل" لها وقعها لدى (أمّ سالم).. إلا أنّها تجاهلته و تجاهلت انتظاره لمعرفة ردَّة فعلها على كلامه، يخرج ويصفق الباب خلفه..

ترنيمة من الورقة الرابعة والعشرين

تتابع السيّدة (نيرمين)والدة (أنس):

"عائلة (سهى) فلسطينية كانت تسكن في لبنان، وعاشت هي في منزل عائلتي منذ طفولتها.. كنّا في بيروت ووالدها الصديق المقرّب لوالدي.. تعرّض منزلهم للاحتراق خلال الحرب ولم ينجُ غيرها فضمّها والدي إلى العائلة وسررت بذلك جداً لأنني وحيدة.. وحين عدنا إلى بلدنا سورية أمضينا معًا أجمل لحظات العمر.. وبما أنّ والدي كان عازفاً للعود وعاشقًا للموسيقى فقد شجعنا على تعلّم الموسيقى واخترتُ البيانو واختارت سهى آلة الكمان.. واستمرّينا معًا دائمًا كشقيقتين أنا و(سهى) إلى أن تزوّجتُ وتبعتني هي وتزوجتْ في عام زواجي نفسه من السيّد (عادل) صاحب "مقهى الليل" ولم يدُم زواجها سوى شهر واحد لأنّها لم تشعر نحوه بالحب كما تشعر به نحو عازف الإيقاع (سالم) الذي يبدي لها الحبّ والاهتمام والوله.. وشعرت بالتسرع في زواجها حين اكتشفت أنَّ السيد (عادل) متزوج.. فطلبت الطلاق ونفّذ رغبتها مرغمًا لكنّه بقي على التعامل معها بودّ وسلام لأنّه يحبّها، وكانت زوجته على فراش المرض، تصارع الألم وفارقت الحياة بعد أشهر قليلة.. كانت (سهى) قد تعمقت علاقتها بعازف الإيقاع (سالم) وارتبطت به.. لكنها على خلاف شبه دائم معه.. لأنه غضوب ويمتلك

عادات مختلفة عن بيئتنا.. ويعيش حالة الفصام الفكري المتضخمة لديه على ما بدا لنا من سلوكه.. فنراه في المقهى يحترم النساء ويعاملهنّ بلطف شديد ويبدو بمنتهى الرقة في سلوكه.. وهذا ما جعل سهى تميل إليه وتحبّه، لقد أحبّته حبّاً جنونيّاً.. لكنّها بعد الزواج اكتشفت ازدواجية شخصيته، لقد استمرّ في الحفاظ على لطافته نوعاً ما في تعامله مع سهى وبما يشبه الاحترام أي بحذر.. خشية خسارتها.. فهي أجمل العازفات.. وزواجه منها قد جعل صاحب المقهى يميّزه بمكانة لم يكن ليحظى بها لولا (سهى) التي يسعى صاحب المقهى لنيل رضاها دائمًا لأنّه مازال يحبّها برغم زواجها من سواه.. وأشدّ ما كان يثير حفيظة (سهى) من زوجها (سالم) هو معاملته القاسية جداً مع شقيقته الصغرى (رويدة).. كان يختلف مع (سهى) ويثور غضبًا لكنّه يحافظ على تماسكه أمامها، ثمّ يهرع إلى شقيقته (رويدة) - التي تحبها (سهى) حبًّا عظيمًا - ليختلق الشجار معها ويضربها.. فتغضب (سهى) وتخرج من منزله عائدة إلى منزل عائلتي.. وبعد مدّة قليلة من الزمن يأتي إليها معتذرًا فتعود..

وعندما عادت (سهى) إلى منزل سالم.. توقّعتْ أن تهرع إليها (رويدة) مرحبّة بعودتها.. لكنها صدمت حين شاهدتها شاحبة الوجه، ذابلة

العينين.. فشعرت بألم كبير وحزن شديد.. (رويدة) صديقتها اللطيفة والمخلصة.. التفتت لوالدة (سالم) وسألتها:

"ما بها (رويدة)؟!.. ما الذي حصل لها؟

فما كان من (سالم) إلّا أن وضع ذراعه على كتفها وقبّلها وأدخلها غرفتهما.. قائلاً:

"أرجوك حبيبتي دعي شأني مع عائلتي بعيدًا عن حياتنا معًا.. هذه الأمور تتعلق بهم ولا شأن لك بها.. اهتمي بأمورك فقط.."

وخرج قاصدًا منزل صديقه (راضي).. سار في الطريق فاتحًا صدره للحياة.. متلصّصًا على كلّ حسناء عابرة.. إلى أن وصل إلى منزل صديقه (راضي) حيث وجد لديه اجتماعًا لفريق الإدمان والتسلية الرخيصة.. كانت الراقصة (لولّا) التي طالما رافق عزفه إيقاع رقصاتها.. انفرجت أساريره لرؤيتها وهرع إليها متجاهلا الجميع، يجثو ويحتوي جسدها -العاري تقريبًا- بذراعيه ويبدأ بتقبيلها بنهم.. قاطعه (راضي) وأخذه جانبًا، ليحدّثه على انفراد:

"(لولّا) بمفردها ليست كافية يا صديقي..! أليس كذلك..؟! .. اذهب وعد إلينا ببعض صديقاتك.. ودعهم لنا لتستمتع وحدكَ (بلولّا).. فما رأيك..؟ واطمئن نصيبك من ال.... محفوظ..!

وكان صاحب المنزل قد أعلم رجال الشرطة بأمر هذا المستأجر اللعوب (راضي).. وحين عودة (سالم) مع صديقاته الرخيصات.. كان رجال الشرطة بانتظاره.. وكانوا قد استجوبوا الحضور وأخبرهم (راضي) أنّ صديقه (سالم) قد ذهب لإحضار الطعام لا أكثر.. وتمَّ اقتيادهم جميعًا إلى السجن.

تقبَّل أهل (سالم) خبر سجنه بهدوء.. فهو المكان المناسب له بعد المصيبة التي أحدثها لشقيقته (رويدة)..

أدركت (رويدة) أنّ ذلك اليوم الذي وجدت فيه شقيقها (سالم) بانتظارها قرب المتنزه لم يكن من قبيل المصادفة.. لأنّها لمحت (راضي) في ذات المكان ولابدّ أنّه من أخبر (سالم) فهو أوّل من أعرب لها عن إعجابه وحبّه.. ولم ينس رفضها له وتفضيل آخر عليه.. فاستمرّ بملاحقتها إلى أن رآها مع سرور فحقّق مبتغاهُ بإخبارِ شقيقها الذي يعرف عقليّته ورجعيّتة الدفينة.. وهو المذنب الأول بما حصل لها.. فقالت حين سماع الخبر:

"إنّ الله يمهل ولا يهمل..!"

فعاتبتها الوالدة:

"لا يا ابنتي.. إياك والتشفّي..!.. وتذكري أنّ (سهى) حامل.. ونحن جميعاً نساء..! وجوده بيننا يقينا شرّ النفوس الوضيعة.."

ضحكت (رويدة) بتهكّم وألم:

"(سالم) يحمينا.. ؟!.. وهذا هو وضعي..!"

وانتهت ضحكاتها بالبكاء.. هرعت إليها (سهى) تعانقها وتشاركها البكاء.. واحتضنتهما الوالدة والدموع تنهمر بلا توقف..

أنشد الهدوء لحنه الشجي في المنزل الصغير بعد غياب (سالم)..

وكان صقيع الثواني يجمّد الأيّام التي تمرّ على (رويدة).. وهي حبيسة المنزل، منكفئة على ذاتها، تنثني على أحزانها وضجيج صمت تموج به نفسها توقًا وحبًّا للناس والحياة والطبيعة.. لكنّها ترفض الخروج من المنزل مهما حاولت (سهى) أو والدتها حثَّها على ذلك.. كانت تجلس على كرسيها المتحرك المقابل للنافذة.. تتأمّل الفسحة السماوية المطلة على نافذتها بهيئة ضياء بهيّ كثيف يتوسط أشجار الحديقة المقابلة للمنزل.. وكثيرًا ما سامرها ذلك الضياء باستحضار عالم أحلامها الوردية..

لقد صاغ لها من أحلامها مملكة وفردوس أمنيات، وتوّجها ملكة.. فتشرع باب المخيّلة وتلج قصر السعادة الرّحب.. ويبادر (سرور) لاستقبالها في جنّتهما الخاصة.. وآن عودتها للواقع تلمح (سرور) رافعًا يده مودّعًا، يبسم لها.. فيسود عالمها الأمان وتنثر السعادة أزهارها في محيطها الوردي الهنيء..

ما عدا بعض الأوقات الكئيبة التي كانت تسبق جلسة المعالجة الفيزيائية التي تواظب عليها وتلقبّها بجلسات الأمل.. فكانت عبثًا تحاول طرق باب المخيّلة دون جدوى لفرط كآبتها.. فيخيّم شبح الكآبة الرهيب ويغلق بقبضته الرهيبة أبواب السعادة كلها.. وتتغيّر هذه الحالة بعد جلسة الأمل الفيزيائية التي تعيدها ملكة في عالم الضياء الوردي السعيد..

وبدعم من (سهى) ووالدتها استطاعت رويدة متابعة دراستها.. وكانت في أوقات فراغها من الدراسة تقوم بمساعدة والدتها و(سهى) بصنع الزهور الصناعية لبيعهم في المتجر الذي اتسع ونجح ولاسيما أن السيد (عادل)

-صاحب المقهى الذي تعمل به (سهى) عازفة لآلة الكمان- كان يشتري أزهارهنَّ باستمرار.. وكانت الوالدة تقوم بزراعة بعض الأزهار الطبيعية لبيعها أيضًا.. لكنّ طلبات (سالم) وهو في سجنه لم تنته يومًا ولطالما أرهقهنّ ليستمتع بما تجنيه النساء من أرباح..

ترنيمة من الورقة الخامسة والعشرين

ذات يوم بينما كانت (رويدة) غارقة في تأمّل السماء.. حيث يخال لها وجه من تُحب.. تجسدت ملامحه وهو يدعوها لمرافقته إلى مملكة الأحلام الوردية.. فجأة تدخل (سهى) وتلاحظ ذلك الشرود الجميل -برغم غموضه-.. تلتفت إليها (رويدة) وتحدثها بشاعرية مرهفة:

"هل ترين تلك الغيوم البيضاء وذلك الوجه المرسوم بين السحب المجنحة تلك؟!"

وجهت (سهى) نظرها نحو السماء وابتسمت:

"أنا لا أرى ما تلمحين من الصور يا غالية..! لكنّه مشهد ساحر آسر.. أسعد الله قلبك دائماً.. جئت أدعوك للانضمام لنا أنا والوالدة لصنع الأزهار الجميلة الخاصة باحتفال العرس الذي سيُقام في (مقهى الليل).. واحتساء القهوة الشهية فما رأيك؟

اشترطت عليها (رويدة) أن تعيد النظر للسماء لتتأكد من الوجه المبتسم بين الغيوم.. تعود (سهى) للابتسام:

"لا أجيد الكذب.. لا أرى سوى زرقة السماء وسحب فوضوية جميلة مبعثرة بأشكال عديدة.. لكن لا وجود للوجوه..!

والآن دعي الحبّ وعالمه الوردي جانبًا وانظري إليَّ.. أنا (سهى) تلك الموسيقيّة العاشقة لرجل سجين وغريب الأطوار..! .. وأنا يا حبيبتي بقمّة الإرهاق وحامل في الشهر التاسع.. أعتقد أنني سأضع طفلي بعد إتمام هذه (الطلبيّة) من الورد.. وسيتوفر لطفلي ما يحتاجه من المال الذي نحن بأمسّ الحاجة إليه في هذه المرحلة.."

ثمَّ اقتربت من (رويدة) واحتضنتها بحنان.. وماهي إلاّ أيّام وتدفّق في منزلهنّ الهادئ المال الوفير الذي جنتهُ الأيادي الناعمة من صناعة الورد – لأنّ (سهى) لم تعمل بالعزف على الكمان طيلة فترة الحمل-.. واستطعن دفع تكاليف المشفى ومستلزمات ولادة (سهى) لطفلها الجميل (راني) الذي أحبّته (رويدة) حبًّا عظيمًا.. وخصصت مكانًا لنومه في غرفتها ليبقى برعايتها أثناء غياب (سهى) للعزف في المقهى..

واقترب مجيء أجمل الأعياد لدى (رويدة).. رأس السنة الميلادية.. لكنّها في هذا العام، ارتدت الكآبة ثوباً للعيد على كرسيّ متحرك.. وتَحرّك بها الوقت وحَمَلها على أجنحةِ الذاكرة.. لتستعيد تفاصيل عيد رأس السنة الماضية.. حين وعدها سرور بطيب اللقاء:

" سأمرّ قرب منزلك في منتصف ليلة العيد.. وما عليك سوى فتح باب المنزل واستقبال تهنئتي لك ببدء العام الجديد.. أرغب أن أكون أوّل المهنئين لك حبيبتي.."

برغم الفرح بدا القلق على ملامحها.. تذكرت شقيقها المريع..! لكنّه يعمل إلى الصباح في المقهى.. فاطمأنّت بالًا وطلبت من سرور:

"أحضر معك شقيقتك اللطيفة (لورا).. لأنّني أحببتها جدًّا.."

وفي الموعد المحدّد.. فتحتْ (رويدة) باب المنزل وكانت أضواء المفرقعات تضيء ظلام الليل.. وأصوات الناس تعزف سيمفونية الفرح ويضجّ الحيّ بأجواء الألفة والبهجة.. أطلّ (سرور) و(لورا) وكان يحمل الورد..

-وليس هناك في الوجود ما يدفعنا للمغامرة كما يدفعنا إليها الحبّ- أدخلتهما (رويدة) إلى مدخل البيت وهرعت (لورا) إلى تقبيلها.. وبعدها احتضنها (سرور) بقبلة طويلة تبعتها قبلات لهفة دافئة.. وانتهى ذلك اللقاء الهانئ الذي كان كوميض السعادة حين تلمع نظرة الحبّ ببارقة مخطوفة من عمر الزمن.. ولم تعرف عيناها النوم في ذلك اليوم..!

وهي في هذا العيد ترفض الاستيقاظ من النوم برغم إلحاح والدتها.. لكنّ (سهى) لم تيأس أحضرت القهوة والماء ومسحت وجهها برذاذ الماء، كي

ترغمها على الاستيقاظ.. وفجأة يُقرع جرس المنزل.. فتنتفض (رويدة) وتقول:

"إذا كانت صديقتي (لورا) هي القادمة أرجو إخبارها أنّني تزوجت ورحلت للخارج.."

خشيت (رويدة) أن يتحول الحب في قلب (سرور) لحالة من الشفقة.. وذلك مالا تستطيع تحمّله.. فقررت بتر علاقتها به..

(لورا) شقيقة الإنسان الوحيد الذي أحبّتهُ (رويدة) حبًّا عظيمًا.. ونادرًا ما كانت تزور البلد، وتسارعُ منذ بداية وصولها بالذهاب إلى منزل (رويدة) لتسلّمها رسائل المحبَّة من (سرور) وتعمل (لورا) في فرقة فنيّة لمجموعة من الفنانين المغتربين.. وأعادت الصدمة أصداء هذه العبارة مرارًا في سمعها: "عذرًا حبيبتي صديقتك (رويدة) قد تزوجت وسافرت مع زوجها إلى خارج البلاد.."

كم أحزنها هذا الخبر..! لقد أثقل رأسها الفراق وشعرت بالدوار.. كانت قصة حبّهما مثالًا للحب السامي البريء النادر جدًّاهذه الأيّام.. وتذكّرت يوم عرّفها شقيقها (سرور) على حبيبته (رويدة).. وحدّثتها عن أعمالها الفنيّة وطموحاتها.. وروت لها (رويدة) قصة جميلة تمنح الحب ما يستحقه

من السمو، وكيف كان (سرور) يتأمّلها بوله وهي تروي قصّتها وخصلات شعرها تتمايل إثر انفعالاتها مع أحداث القصة.. تساءلت (لورا):

"هل هكذا ببساطة يتمّ نسيان الحب..؟!"

واستمرت بعادتها ذاتها كلّما عادت للبلد تأتي إلى منزل (رويدة) علّها تتمكن من رؤيتها أو معرفة أخبارها..

وغرق (سرور) بلجّة الكآبة حين أدرك أنّ شقيقته (سارة) جادَّة فيما تقول..!

وسألت (سهى) صديقتها الحبيبة (رويدة) ذات يوم:

"ألستِ نادمة لعدم البوح لسرور بحقيقة ما جرى لكِ؟!.. الحبّ الحقيقي لا يتحوّل لشفقة.. صدقيني يا حبيبتي.."

أجابتها والأسى يغمر ملامحها:

"بل يتحوّل.. أريد الحبّ لأجل الحبّ.. وأمقتُ الشفقة..!"

وذات يوم عادت (سهى) من زيارة لسالم في السجن وقد بدت كئيبة قالت:

"يبدو أن (سالم) يرغب في وداعك يا (رويدة)..!"

دُهشت (رويدة):

"يُريد وداعي.. !..ما معنى هذا الكلام؟!"

قالت (سهى):

"طلب رؤيتك.. !.. وروى لي كيف شاهدك بحلمه..!"

دهشت (رويدة):

"هل يشعر بالذنب تجاهي..؟!.. لم يكن يومًا عاطفيًّا في نظري.. فكيف سأصدق مشاعره المفاجئة هذه.. ! ماهي تفاصيل حلمه..؟!"

تخبرها سهى أنّه حقًّا يشعر بالذنب تجاه ما مضى ويرهقه هذا الشعور بالذنب.. وتروي لها:

"شاهد نفسه في ليلة شتوية مظلمة.. يقف على جرف وادٍ سحيق والريح تعصف من حوله، وهو يحاول البحث عن بقعة ضوء صغيرة.. لكنّه لم يجد أيّ منفذ للنور.. والظلام يزداد كثافة مع ازداد عصف الريح.. وفجأة يلمح وجهك باكيًا، ويهوي في الوادي وهو يصرخ باسمك..(رويدة).. (رويدة).. إلى أن أيقظه رفاق سجنه..!"

سمعت الوالدة حوارهما فتدخلت:

"سنذهب معًا ثلاثتنا لزيارة (سالم) ونأخذ (راني) معنا.."

أخبرتهم الوالدة أنّها تعلم بمرض (سالم) من مدّة.. لكنّه رغب في كتمان الأمر..

وأثناء الزيارة لاحظت (رويدة) مدى شحوب شقيقها وذبول حركاته.. وانتبه (سالم) لنظراتها، الأمر الذي استثار حنقه.. فهو لا يرغب أن يكون موضع رثاء من قبل أحد ولاسيما من كان سببًا في معاناتهم.. وصرخ في صوت واهن:

"(رويدة).. أنت تجلسين على كرسي المقعدين بسببي.. طلبتُ من معالجك الفيزيائي زيارتي وجاء.. أخبرني أنّ حالتك هذه ليست دائمة وقال أنّك تستجيبين للعلاج بسرعة.. وقريبًا ستعودين للسير والركض، وقد لا أكون في هذا العالم، بسبب مرضي.. لكن كوني على ثقة يا شقيقتي الصغيرة أنني لم أسامح نفسي أبدًا.. ! وأندم ندمًا شديدًا على أخطاء الماضي كلّها.. وأرجو أن تسامحيني.."

بكى (سالم) والجميع وقالت (رويدة):

"سامحك الله يا أخي وأبعد عنك المرض.. ليتني أفتديك..!"

وأجَّجت طيبتها و رقّتها مشاعره.. فقال:

"اذهبوا الآن.. أرجوكم..!"

بعد عودتهم للمنزل دُهشت (رويدة) من عدم اهتمام (سالم) بابنه (راني).. تصرّف وكأنّه لم يره.. لم ترغب لفت نظر (سهى) لهذا الأمر.. وهي المرّة

الوحيدة التي تحضرهُ (سهى) معها لزيارة والده في السجن..!.. ثمّ علّلت الأمر لنفسها.. على ما يبدو أنَّ قاسي القلب من الناس يبقى كما هو حتى مع أطفاله..

ومات (سالم) في السجن.. وازداد اهتمام السيد (عادل) صاحب المقهى بسهى وبالجميع لأجلها.. إلى أن عادت لتصبح (زوجته) من جديد.. ولم يمض على هذا الزواج سوى عدة أشهر حتى اختفت (سهى).. ! أو اختطفت..!

الفصل السادس

تشربت طفولة (راني) الغضَّة انفعالات البيئة التي ولدَ فيها.. ولمس الودّ والألفة بصحبة عمّته (رويدة) الأقرب إلى قلبه والصديقة المفضلة لوالدة (أنس)..

توقفت السيدة (نيرمين) عازفة البيانو عن السرد وتوجهت نحونا بقولها:

" سوف أكمل لكم ما جرى من أحداث في جلسة قادمة.."

ترنيمة من الورقة السادسة والعشرين

رغبنا في متابعة الأحداث التي جرت في الأسرة التي احتضنت طفولة (راني) الأولى.. وما حدث مع تلك العاشقة البائسة (رويدة) التي أبصر (راني) الدنيا من خلال عالمها..

اتفقنا على زيارة قادمة إلى منزل أنس سيتمّ الاتفاق عليها لاحقًا مع والدته التي أحببناها جداً بعد هذا التقارب بيننا..

التقيت بأصدقائي في (مكتبة الياسمين) (أنس) و(راني) و(ياسمين).. اتفقنا على كتمان معرفتنا بعائلة (راني) السابقة.. وفجأة تدخل فتاة سمراء وتطلب أحد كتب (شكسبير).. تأخذ الكتاب وتغادر، وتُحدّثنا (ياسمين) عنها:

"هذه الشابّة تقرأ كثيرًا ولاسيّما كتب (شكسبير) والكتب المتعلقة بالفلسفة وعلم النفس.. سألتها عن دراستها.. أجابت أنها تدرس الفلسفة وتهوى الأدب وتقوم حاليّاً بكتابة مذكرات هي عبارة عن صور اجتماعيّة من صميم واقعها ويوميّاتها.. فهي تعاني كثيرًا..! هكذا قالت بدون أن تخبرني شيئًا عن معاناتها..! لكنّها أخبرتني أن ما استفزها لكتابة مذكّراتها هو تسليط الضوء على الجوانب التي ترفضها في واقع حياتها الكئيب.. وهي

مدمنة على قراءة الكتب المعرفيّة.. ويبدو لي أنَّها عاشت حياة بائسة جداً.. من خلال أحاديثي القصيرة معها.."

لاحظتُ الدهشة على محيَّا (راني).. منذ دخول هذه الفتاة للمكتبة.. وبعد الاستماع لحديث (ياسمين) عنها.. قال:

"أعتقد أنّني أعرف هذه الفتاة.. أراها عادة في المقهى مع أصحابها.. ويأتي والدها لطلب المال من والدي في مطلع كل شهر.. وعندما سألت والدي عنه أجاب أنّه يساعد هذا الرجل على صعوبات الحياة.. وما أدهشني أنّه لم يزل قويّ البنية ويعمل مع ورش البناء.. وكان في الماضي يعمل عازفاً في المقهى.. يعزف إيقاع الرقص الشرقي وكان متزوّجًا من إحدى الراقصات في المقهى.. فما سرّ هذا الوضع لا أعلم..!

تبادلتُ النظر مع (أنس) و(ياسمين).. وقلنا معًا:

"عازف إيقاع..! ما اسمه؟!"

أجاب (راني):

"اسمه راضي.."

وبدت الدهشة على ملامح الجميع.. فنحن الآن نعلم من هو (راضي).. إنه ذاك الصديق المدمن الواشي الذي أخبر (سالم) بأمر لقاء (رويدة)

و(سرور).. لأنّه أحبّ (رويدة).. وهي لم تبادله إحساسه.. تأمّلَنا راني باستغراب.. وسألَنا:

"وهل تعرفون (راضي) هذا...؟!"

أجابه (أنس) ضاحكًا، وبأسلوبه المراوغ:

"نمازحك يا رجل.. !.. ومن أين لنا معرفته.. أخبرنا ما قصته.. لماذا يطلب المال من والدك.. هل بينهما شراكة عمل مثلًا.. وما مدى معرفته بوالدك؟!"

أجاب (راني):

"معرفته بوالدي قديمة.. منذ زمن بعيد عمل هذا العازف في المقهى لكن لم أعهده أنا.. كان ذلك قبل مولدي.. تزوج من إحدى الراقصات وكان اسمها (سيرينا).. وتمّ سجنه مدّة من الزمن.. وحين خرج وجد لديه طفلة صغيرة اسمها (صبا).. هي هذه الشابة القارئة الآن.. وقد تعرّضت والدتها لحادث سير وأصبحت مريضة بعد أن تشوّه جمال جسدها وأصبحت تعرج في مشيتها.. برغم جمال وجهها الذي لم يتغيّر.. وبعد مدّة أخذت مجوهراتها وجميع ما وجدت في المنزل من مال ورحلت دون أن تخبر أي أحد إلى أين وجهتها..!

و يعمل والد (صبا) حاليًّا في أعمال البناء ولا يأتي إلى المقهى إلّا لحضور فقرة الرقص الشرقي.. أمّا ابنته فأراها في الصباح مع مجموعة من الفتيات والشبّان أصحابها في الجامعة.. وتحب أحياناً حضور الحفلات الموسيقية الغنائية.."

عقّبت (ياسمين) بامتعاض:

"تبدو وكأنّك تهتم بهذه الشابة الجميلة (صبا).. ! لأنك تراقبها.. متى تأتي.. ! ومع من.. ! وماذا تحب.. !"

أخفينا ابتساماتنا.. فالوضع الذي حُشِر فيه (راني) أمام (ياسمين).. لا يُحسد عليه.. وفجأة.. بدا الوجوم على محيّا (راني) ثم نهض وخرج بلا وداع..!

وبينما كان يغادر.. التفتت (ياسمين) نحونا وقالت:

"لقد تحوّل كالعادة.. !"

لم نعلم هل نضحك.. أم أنّ ما حصل يثير القلق.. أم هو دعابة وأخذها (راني) بمحمل الجدّ لكي يذهب ويعود للغوص في عالمه الموسيقي الحميم.. ؟!

انفضّت جلستنا .. والسلام..

ترنيمة من الورقة السابعة والعشرين

عدنا لمتابعة ما ترويه لنا والدة (أنس) ونحن بتوق لولوج البيئة التي نشأ فيها صديقنا (راني) في طفولته المبكرة..

ارتشفت قهوتها وأنظارنا متجهة نحوها.. كان الوقت العاشرة صباحًا.. وصوت فيروز يصدح برقّة من آلة بجوار عازفة البيانو وهي تهمّ بالحديث عن (رويدة):

"في صباح صيفيّ مشرق، تسللت أشعة الشمس من خلف الأغصان المتشابكة في الحديقة المطلّة على منزل (رويدة) التي اختارت الجلوس أمام المنزل.. كوطن جريح يرغب بتجاهل جراحه واصطناع السعادة فيشارك بأجمل صورة فوتوغرافيّة لدخول الصورة في الكتب والمجلات العالمية الشهيرة.. وكانت تبدو في ثوبها الأزرق الطويل الذي يخفي كرسي الإعاقة.. كلوحة إبداعية آسرة لفنان عظيم.. وعَبَرَ الوجود كلّه أمامها بلحظة مرور عربة..!

كانت تلك العربة تسير ببطء وسائقها يلتفت نحو (رويدة) بذهول.. ثم يتوقف ويترجَّل عربته.. ويسير نحو (رويدة) وهو يبادلها نظرات الدهشة والاشتياق حدّ انهمار الدموع.. يدنو منها وإذ بها تقف وتخطو نحوه.. وتكاد

تسقط فيمسك بها ويحتضنها.. وكأنّهما في ملكوت عالم يخلو من البشر ويمتلئ بهما وحدهما..! يدخلا الحديقة.. ويخاطبها بأسئلة متلاحقة:

"(رويدة).. !.. هل كنت تجلسين على كرسي إعاقة..؟!

أخبريني عن سرّ فراقنا..! وما سرّ خبر زواجك السريع الذي عزلني عن عالم الأحياء.. لماذا ظلمت حبنا العظيم..؟!

تجيبه بدموعها وبهمسات اشتياق:

"(سرور).. أنا لا أصدق أنّك أمامي وتتحدث معي..! قد يكون هذا أحد أحلامي..!"

تجلب والدتها القهوة ويدهشها كرسي رويدة الفارغ.. تلتفت نحو الحديقة ويبهرها المنظر..! رويدة تسير على قدميها..!

وكما وعدها الطبيب والمعالج الفيزيائي.. "لا شيء يمنع رويدة من السير على أقدامها.. وضعها نفسي.. لا أكثر.."

تشعر بحالة من الفرح الجنوني..

أما (رويدة) فهي في ملكوت الحب الحقيقي الصافي.. الذي كانت أيّامها تقتات على عالمه السعيد البعيد.. نادتها:

" رويدتي..!"

التفتت إليها (رويدة) وملامحها تنطق بالدموع وابتسامة الفرح..

تهرع الوالدة نحوها.. فتستقبلها بدموع انبعثت من دفق أمواج الفرح:

"هذا (سرور) يا أمي..!"

رحّبت الأم بسرور الذي باتت مدينة له بحياتها.. لأنَّ القدر وضعه سبباً لشفاء ابنتها..

تتركهما الوالدة مع القهوة.. على مقعد في الحديقة وتعود للمنزل..

ويطول حديث قهوة الصباح مع الحب.. الذي يقود أوركسترا الحوار.. تئن النغمات آن العتاب.. وتتراقص طرباً كخفق أجنحة الطيور في لحظات بوح المشاعر.. وتلوذ وتيرة الأحزان بالصمت أمام صخب السعادة المفاجئة التي أجّجت النبض وأحدثت ثورة الأعصاب والمشاعر وانتفاضة الفرح..

ومرت الأيام.. بعزف يتراقص بهجة على أوتار الأحلام وهي تتجسّد واقعًا..

تزوجا وسافرت (رويدة) معه إلى فرنسا.. وحاولا إقناع الوالدة بفكرة السفر لشدّة تعلُّق (رويدة) بها، كي تسافر معهما، لكنّها آثرت البقاء في البلد حيث جذورها متشبثة في أرضه ومتشعبة فيها.

ترنيمة من الورقة الثامنة والعشرين

تتابع والدة (أنس):

"إلى الآن تصلني رسائل من (رويدة) تسألني عن (سهى) وأخبارها وأخبار (راني) ووالده..

لم تكن (رويدة) تعلم أنَّ (سهى) عندما تزوّجت من سالم كانت حامل بطفلها الجميل (راني) من زوجها الأوّل عادل صاحب المقهى وحتّى السيد (عادل) نفسه لم يكن يعلم لأن (سهى) حين طلبت منه الطلاق لمعرفتها بأنه متزوج، لم تخبره بأمر حملها لكي يوافق على الطلاق.. وحين عادت إليه بعد موت (سالم)، أعلمتني في حديث بيننا أنَّها ستخبره بأنَّ (راني) ابنه وهو والده الحقيقي ولديها إثباتات تؤكد ذلك.. وعلى ما يبدو.. من المعاملة المثاليَّة التي يتلقّاها (راني) من والده عادل.. أنَّها أخبرته.

والآن سأعتذر منكم أحبّتي لأذهب إلى عملي..".

وتمثُل في أذهاننا وحديثنا صورة (راني) منذ الطفولة وإلى زمننا الحالي..

حين يُعقّب (أنس) على حديث الوالدة:

"لكنَّ (راني) الذي ولِدَ لا يعرف سوى والده السجين (سالم) وأمّه العازفة الفنانة التي تتحمل مشقّة عمل إضافيّ لتساعد جدّته وعمّته المريضة (رويدة) والتي سمع قصتها -بشكل غير مباشر- منذ بدأ بلفظ الحروف..

ومعاناة الجميع من أجل تأمين المعيشة والمال الذي يطلبه والده السجين (سالم).. ويباغته القدر بوالد جديد هو الوالد الحقيقي.. ثم تختفي والدته من حياته.. يا إلهي.. !.. كيف استطاع التحمّل..! والآن أصبح لياسمين نوافذ مشرعة تُطلِعها على سرّ الحزن المطلّ من عيني (راني)..!"

وتُعقّب ياسمين:

"ليس فقط سرّ حزنه يا (أنس).. ! إنَّ هذا الماضي يبرّر سرّ شروده وغرابة سلوكه أحيانًا.. وعدم تقبّله لأدنى عتاب أعاتبه له.. والعتاب البسيط الذي يجعله في حالة حزن رهيبة.. وكثيرًا ما تركني وحيدة في أماكن عدّة زرناها معًا وذَهَبَ بلامبالاة صادمة.. وهذا لن أخفيه عنكم بعد اليوم لقد جعلني حقًّا أعود وحيدة من مشاوير عديدة..!"

وجَّهتُ كلامي لياسمين:

"اعتاد راني على مسامحتك للهفوات التي تسبّبها سرعة غضبه.. وهو يعلم أنّ الحبّ يدفعك لتلك المسامحة

وبعد اليوم سيزداد تسامحكِ له كلّي ثقة بذلك..!"

ابتسمت (ياسمين) بودّ وحرّكتْ رأسها إيجابًا.

ترنيمة من الورقة التاسعة والعشرين

أمضينا أجمل أيّام الصيف معًا أصدقائي وأهلي..

اجتاح أحد الظلال ظلّي في دربي ذات يوم تحت أشعة الشمس اللطيفة وكان يلاحق خطواتي على الرمل في ساعة مبكرة من الصباح على شاطئ البحر.. التفتُّ نحوه.. كان هذا (أنس) الذي يدرك مدى ولهي ورغبتي باستقبال الشروق.. الذي ينبثق متفجرا بألوانه الورديّة على ندف الغيم المتناثرة بفوضوية آسرة.. فوق الأرياف الجبلية المطلّة على البحر.. وقف بجانبي وراح يتأمّل ما أشاهد من انبلاجٍ آسر لشروق الشمس.. قال:

"ماذا يعني لك منظر الشروق.. لتهرعي كل صباح إلى الشاطئ وحيدة.. تديرين ظهرك للبحر وتحلّقين مع شلوح الغيم المجنونة هذه..؟!"

أسعدني اهتمامهُ بي .. ضحكتُ..:

"لا أعلم.. قد أكون مجرّد حالمة رومانسية.. كرويدة عمّة (راني).. أو متأمّلة في الوجود.. أتساءل.. منحنا الله هذا الجمال في الطبيعة.. السماء الثريّة بشروقها وغروبها ونهارها وليلها.. والأرض التي يفيض الجمال من جبالها وأوديتها، هضابها والوهاد وهذا البحر الساحر..

وعثنا فساداً بها نحن البشر حين صنعنا الحروب.. لماذا وما الغاية من الحروب..؟!"

أجاب بجدية:

"الحروب من صنع البشر والشرور كلّها كذلك.. صنع الإنسان السلاح من أجل سلامه وأمانه، واستخدمه بوحشية ضد عدوّه.."

قلت:

"لو يحتفظ الإنسان بالسلاح ليمنحه الشعور بالأمان والسلام.. ولا يستخدمه إلّا للدفاع عن النفس.. لانتهت الحروب من حياتنا وعشنا بسلام..؟

بدت الدهشة على ملامح (أنس) واعترض قائلًا:

"لهذا الموضوع أجنحة ومخالب وأنياب.. لأن من يمتلك السلاح يستطيع الهجوم بأساليب عدّة.. كأن يدّعي أنّه يشنّ هجومه دفاعًا عن السلام، أو لأسباب مختلفة عبر التقنُّع بقشور من الشعارات والمبادئ الإنسانية الزائفة..

لقد انهيتُ قراءة كتاب (لماذا الحرب؟) وهو عبارة عن مناظرة بين عالم الفيزياء (ألبرت أنشتاين) وعالم النفس (سيغموند فرويد)[1]

[1] -منشورات تكوين/د. نادر كاظم/ترجمة جهاد الشبيني-

كتبت بعض المقتطفات التي أعجبتني فيه.. افتحي هاتفك لأرسلها لكِ.."

لماذا الحرب؟

مقطع من رسالة ألبرت أنشتاين في عام ١٩٣٢:

"أنا معجب بشدّة بشغفك لتأكيد الحقيقة.. لقد أظهرت مع وضوح لا يُقاوم كيف ترتبط الغرائز العدوانية والمدمّرة في النفس البشرية مع غرائز الحبّ وشهوة الحياة. وفي الوقت نفسه، تبرهن حججك المقنعة عن إخلاصك العميق للهدف العظيم لتحرير الإنسان الداخلي والخارجي من شرور الحرب. إنّ القادة السياسيين أو الحكومات مدينون بسلطتهم إمّا لاستخدام القوّة أو لانتخابهم من قبل الجماهير، ولا يمكن اعتبارهم ممثلين للعناصر الأخلاقية أو الفكرية الفائقة في الأمّة. السؤال هو: أنّى لهذه الوسائل أن تنجح هذا النجاح في إلهاب حماسة الجماهير بهذا العنفوان حتى يضحّوا بحياتهم؟ هناك إجابة واحدة فقط معقولة، وهي أنَّ الإنسان بداخله نزعة للكراهية والتدمير.. في الأوضاع العاديّة يكون هذا الميل مستترًا ولا يظهر سوى في الظروف غير المعتادة، إلَّا أن استدعاءه وترقيته إلى سلطة الهوس الجمعي مهمّة سهلة نسبيًّا. وربما يكمن هنا صلب كلّ التشابك بين

العوامل التي نضعها في الاعتبار، لغز يمكن للخبير في العلم المختص بالغرائز الإنسانيّة، وحدهُ، أن يحلّه.

إن عرض مشكلة السلام العالمي في ضوء أحدث اكتشافاتك سيكون أحد أعظم الخدمات التي تقدمها إلينا جميعًا، لأن مثل هذا العرض من شأنه أن يُمهّد السبيل جيدًا لأنماط عمل مثمرة وجيدة."

مقطع من رد سيغموند فرويد على رسالة أنشتاين في عام ١٩٣٢:

"أدركت أنّك لم تطرح السؤال بصفتك عالم طبيعة وفيزيائيًّا، وإنّما بصفتك محبًّا للخير يحذو حذو عصبة الأمم ، مثلك في ذلك مثل المستكشف القطبي (فريتيوف نانسين) الذي أخذ على عاتقه توصيل المعونات إلى ضحايا الحرب العالميّة المشردين الجائعين.

تقودني شكواك من إساءة استخدام السلطة إلى اقتراح يتعلّق بمواجهة نزعة الحرب بطريقة غير مباشرة.. لا يمكن القضاء على ميل الناس إلى الانقسام إلى فئتين من القادة والتابعين، وهذه مسألة تنبّه إلى ضرورة إيلاء عناية أكبر بتعليم طبقة عليا من الناس تكون لها عقول مستقلّة متلهّفة إلى البحث عن الحقيقة وغير منفتحة على الترهيب تكون وظيفتها توجيه

حشود "التابعين". إنَّ وجود مجتمع من الناس الذين يُخضِعون غرائزهم إلى دكتاتورية المنطق هو الوضع المثالي.

إنَّ الحرب الآن في معارضة شديدة للسلوك النفسي المفروض علينا بسبب عملية التمدن أو التطوّر الثقافي ولهذا السبب نحن ملزمون بالثورة ضدها لأنَّه ببساطة لم يعد بوسعنا تحمّلها بعد الآن. إنَّ هذا ليس مجرد نبذ عاطفي وفكري، فنحن المسالمين لدينا عدم تسامح مشروع مع الحرب، بل إحساس متعاظم إلى أعلى درجة إن جاز التعبير. يبدو الأمر كما لو أنَّ انخفاض المعايير الجماليّة في الحرب التي تلعب دورًا أصغر ممّا تلعبهُ وحشيّتها، في ثورتنا. وكم من الوقت يجب أن ننتظر قبل أن تصبح باقي البشريّة مسالمة هي الأخرى..؟ لا أحد يعرف، ومع ذلك فربما لا يكون أمرًا يوتوبيًّا أن نأمل في هذين العاملين: التوجّه الثقافي والخوف المبرّر من تبعات حرب مستقبلية من الممكن أن يضع نهاية لشنّ الحروب في وقت يمكن قياسه، رغم أنَّه لا يمكننا التخمين عن أيّ مسار سيحدث هذا. هناك شيء واحد فقط يُمكننا التأكيد عليه: أيًّا ما كان ذلك الذي يُعزّز التمدُّن، فإنَّه يتصدَّى في الوقت نفسه للحرب."

أغلقت هاتفي وشكرته:

"عظيم جدًا ما أرسلته لي.. سأولي هذه الرسائل اهتمامي حين عودتنا.. وأتساءل لماذا لم يتعظ صنّاع الحروب، بعد الدمار الذي طال الناس جميعًا والبشريّة جمعاء..؟!

أجاب:

"يتَّعظ.. ؟!

هذا لو أنَّ الناس أسوياء نفسيًّا كلّهم وتعمّ عالمنا العدالة والإخاء.. لكن يا عزيزتي الوجود تعمّهُ حالات الجشع والظلم والحسد والضغائن التي تثير التفرقة بين الناس وتحرّضهم على استخدام السلاح كما تستخدم الوحوش أنيابها ومخالبها للسيطرة على الخصم الضعيف.."

أحبطني كلامه.. فقلت:

"نحن نعيش الحياة المدنيّة المتحضرة ولسنا في غابة مليئة بالوحوش..!

إذا التزم الفرد بواجباته ونفذها على أكمل وجه وأعطى الحق لأصحابه بإنصاف ونقاء ومساواة على اختلاف ألوانهم.. فلابد أن يقي نفسه ومحيطه شرّ البغضاء والظلم.."

أجاب ببعض الأسى:

"وهنا يكمن لبّ المأساة.. تتحدثين عن الإنسان النادر.. وهذا الإنسان الصافي من الشرّ.. أنا شخصيّاً لا أعتقد بوجوده فالعصمة لا تكون إلّا لنبي.."

دافعت عن وجهة نظري:

"أعلم أنّ العصمة لا تكون إلّا لنبي.. ما أعنيه أن يقاوم الإنسان ميوله ودوافعه الدنيا ويسمو بسلوكه من أجل أحبّته، ليجنّبهم ومحيطه وبلاده ويلات الحروب ومآسيها.."

ابتسم قائلاً:

"عزيزتي (سيلا) هذا على صعيد الإنسان الفرد.. ممكن الحدوث.. لكن المشكلة العظمى تكمن في سيطرة الدول العظمى على إقامة الحروب والثورات.. لكي تحقق مآربها الماديّة التي تزيد من عظمتها وعنفوانها وتُفاقم من ضعف الدول الصغرى في العالم ومن ويلاتها لتبقى تابعة خاضعة لسيادة الدول العظمى على الوجود.."

قلت:

"تعني أن الحروب والثورات ليست عفوية ووليدة المكان الذي تُقام به.. ولها

صنّاعها أيضًا.. أصحاب الدوافع والغايات اللاإنسانية برغم رفع الشعارات الإنسانية..؟!"

أجاب أنس:

"ليست عفوية نعم.. لأنها بحاجة لتخطيط خبراء ودعم هائل.. حقاً هم يرفعون الشعارات الإنسانيّة وبعضهم مقتنع بأن الحروب تقام من أجل السلام.. وبحسب رأي (أرسطو) أنّ الشرّ لا يمكن أن يكون غاية.. أمّا الخير فهو غاية الوجود.. وهذا يعني أن الحرب بذاتها ليست غاية لكنّها تقام لغاية السلام..

لكن أنا على ثقة يا عزيزتي أن سلامنا نحن في دويلاتنا الصغيرة لا يمكن أن يكون غاية لحروبهم.. ربّما لسلام دولهم العظمى وزيادة رفاهيتهم.. هذا السلام الذي يقتات على أنقاض حضارتنا وويلاتنا ومآسينا.. سلام من هذا النوع اللاإنساني هو غاية حروبهم وهذا ما أراه..

والآن أرى أن الشروق الجميل الآسر قد رحلَ وارتفعت الشمس بما يجعلنا نحترق.. هيّا بنا لتناول طعام الإفطار.."

ترنيمة من الورقة الثلاثين

عدتُ و(أنس) من الشاطئ، واكتشفنا الانفراد الثنائي بالنقاش.. والدي و والدتي.. (ياسمين وراني).. وبدا الانسجام المتبادل على (راني) و(ياسمين).. تبادلتُ و(أنس) النظرات والابتسامة الواشية بروعة الانسجام..

سألت أنس:

"ألم تشعر بالغيرة من (راني) لحيازته على قلب (ياسمين)..؟"

أجابني:

"ولماذا أشعر بالغيرة من الحبيبين، وحبيبتي معي..؟!"

دهشتُ وضحكت:

"ألم تتغنّى بحبّها زمنًا.؟!"

قال مبتسمًا بدفء:

"كان هذا لغاية في نفسي.. لأُشغل فكركِ ومشاعركِ.. كي أجعلكِ تتعاطفين معي لأنّها لا تحبّني بل تحبّ بليد المشاعر (راني).."

وأنهى حديثه ضاحكًا.. فاعترضت على توصيفه لراني ببليد المشاعر وقلت:

"بل هو متأجّج المشاعر.. لكنّه يكتمُ مشاعرهُ وأحاسيسهُ الدافئة ويعبّر عنها في فنّه الجميل.."

وافقني الرأي قائلاً بتهكّم:

"نعم يا عزيزتي أجدت تجميل حالته.. لكن ما أعنيه بكلامي.. أنّ (راني) يبدو لي بمشاعر فاترة.. بليدة أمام مشاعر (ياسمين) المعلنة والمتأجّجة حقاً.. لأن تجاوبه مع أحاسيسها الدفاقة المشتعلة.. أجده باهتاً وجلّ ما يقوم به من سلوك لا يوحي بالنضج أو الرجولة.. إذ يكتفي بعد عتابها بالغضب والهروب.. بدلًا من احتواء هذا الحب العظيم ومنحه ما يستحق من اهتمامه.. الحبّ كالورد يا حبيبة العمر الجميل (سيلا) يحتاج إلى فيض من الرعاية والاستيعاب والحنان.. أليس كذلك..؟!"

حركت رأسي بالموافقة لا شعوريًّا.. وحده من يأسرني.. وهذا الحب المعلن غايتي وحلمي.. حلّقت طيور كلماته حول أفكاري بهالة الحبّ التي تحجب من حولنا مكوّنات الوجود.. وتبقيه أمامي، ويلفّنا الضياء وحدنا..

كانت المرّة الأولى التي يعترف لي صراحة وبلا مراوغة بحبّه وتكرّر اعترافه هذا بما يزيد عن عهود النكران والتخفّي..

الفصل السابع

اجتمعنا في (مكتبة الياسمين) وعادت (صبا) تلك الفتاة ذاتها التي تسببت في خصام راني وياسمين فيما مضى..

ترنيمة من الورقة الواحدة والثلاثين

دخلت (صبا) إلى (مكتبة الياسمين).. طلبت رواية (باولو كويلّو) "الخيميائي" وأمعنت النظر إلى (راني).. ثمّ أخذت الرواية ورحلتْ..

يلتفت (راني) لياسمين ويبتسم.. تعبسُ (ياسمين) في وجهه وتتكلم بغيظ لم تستطع كتمانه:

"على ما يبدو مشاعركما متبادلة..!"

ويتكرّر الخصام ذاته..

همس لي (أنس) بقرار اتّخذه للتدخل في هذا الموضوع، يهدفُ من خلاله إلى توضيح ما يحصل بينهما، من أجل راحة بال (ياسمين) وتبرئة (راني)..وافقته الرأي..

تعمّد التعرّف على (صبا) عن طريق اشتراكهما بالإعجاب بكتب (شكسبير) والكتب النفسيّة.. وجعلني (أنس) على دراية بالتفاصيل شيئًا فشيئًا، لئلا يقع بالغيرة التي وقع بها (راني).. تلك الغيرة التي وصفها (الكسندر دوماس الكبير) على لسان أحد شخصيّات روايته (الزنبقة السوداء):

"إنَّها الغيرة التي تحوّل القلب البشري لحشرٍ من الأفاعي الصغيرة والكبيرة التي يأكل بعضها بعضًا.."

ولم يجد (أنس) الصعوبة في التعرُّف عليها.. وتعمقت المعرفة بينهما سريعًا، فقد بدا أنّها من النوع البسيط الذي يحكم على الناس من خلال نواياه الطيبة ونقاء سريرته.. اتفقا على موعدٍ في أحد الأماكن العامّة بعيدًا عن (مقهى الليل)..

وراحت تحدّثه عن حياتها وحياة والدتها ومدى المرارة التي ذاقتها.. وكم عانت من الشقاء مع والدها المدمن للمخدرات ولموبقات الحياة كلّها..

وما أذهلني بالحديث عن والدتها -التي رحلت بشكل مفاجئ وغامض أو خُطفت إلى مكان مجهول بغرض سرقة مجوهراتها الثمينة وما تملك من المال واختفت كما أشيعَ في ذلك الوقت-.. ودار هذا الحوار بين (صبا) و(أنس):

(صبا):

"صراحة أعتقد أنّ لوالدي الدور الأكبر في موضوع اختفاء والدتي.. لقد كان على شجار دائم معها في البيت بسبب إنفاقه الرهيب لمالها ومجوهراتها.. أمّا أمام الناس فكان يُظهر لها قمّة الحبّ والرومانسية.. وهكذا بين ليلة وضحاها تختفي هل يُعقل..!

سألها (أنس):

"ألم يشتبه رجال الشرطة به..؟!"

قالت:

"كان التحقيق في صالحه.. لم يشهد أحد من الناس ضدّه.. الكلّ يعلم كم كان يحبّها وتحبّه.. كنت الوحيدة التي تعلم حقيقة علاقتهما.. لكنني كنت طفلة وبإشارة صغيرة من إصبع والدي أصمت..

لا يعبد والدي سوى المال وينفقه بسرعة هائلة على ملذاته الشخصية.. وهو مستعد لبيعي لمن يمنحه المال حين حاجته له.

سألها (أنس):

"وهل تملكين الأدلّة أم أنّها هواجس وظنون تراودك لا أكثر..؟!"

أجابت:

"ثق تمامًا أنا لم أتحدث بهذا العمق والبوح المؤلم لكائنٍ سواك.. لأنّك في غاية النبل ودماثة الخلق.. أنا يا صديقي منذ الطفولة كلّ مساء ألمح والدتي تخرج من الجدار وتبسم لي بحنان وأرى الدمع في عينها متحجّرًا ومحمرًّا، فأشعر بالخوف الشديد وألوذ إلى فراشي أدثّر رأسي وأبكي.. أبكي بحرقة وقهر..!"

يتكلم (أنس) بنبرة حزينة:

"مؤلم هذا الظلام كلّه، الذي يحيط بفتاة وحيدة ورقيقة مثلك.. ما رأيك لو تسمحين لي بالدخول إلى منزلك أثناء غياب والدك.. كي أحاول إحداث ثقب في الجدار الذي تشاهدين والدتك تخرج منه.. لنكتشف سرّ هذا الجدار..؟!"

وافقت (صبا) بلا تردّد واختارت التوقيت المناسب لينفّذ (أنس) اقتراحه..

وحين دخل إلى المنزل، راح يتأمَّل الجدار وأدرك أنَّه يختلف عن باقي الجدران حين طرق عليه بيده وشعر من الصوت الذي أحدثته طرقاته بأنّه يحوي فراغًا في داخله.. وما إن أدخل المثقب في الجدار حتى انهارت بعض قطع الإسمنت وظهر خلفها عدة عظام لجثّة بشريّة..!

في هذه الأثناء يُسمع حركة مفتاح يدور في باب المنزل، ويدخل والدها والجثة مطلّة من الجدار..! تُسارع (صبا) إلى الإمساك بيد (أنس) وتسحبه ليهربا معًا من الباب الخلفي للمنزل حيث الحديقة ويتسلّقان الجدار الذي يساعدهما بالخروج، تُعينهما تلك الثقوب العديدة الممتدة على طول هذا الحائط القديم بالهرب سريعًا.. لإخبار الشرطة بما حصل..

وتذكّرتُ حديث (راني) عن حالته مع والدته..! إنّها مشابهة جدًّا لهذه الحالة.. لكنّه لم يروها لسواي..! وحذرني من البوح بسرّه لأحد..! وهو قد

تعايش مع الوضع ويعتقد حقًّا أن والدته تجالسه ويعزفان معًا.. فهل سيتقبل الفكرة فيما لو طرحتها له..؟!

ترنيمة من الورقة الثانية والثلاثين

تهنا في عالم الكتب ذات يوم في (مكتبة الياسمين) كعادتنا..

تأخّر راني بحضوره، وحين أتى إلينا كان بحالة انهيار.. التفت نحوي بغموض وقال:

"رجال الشرطة في منزلنا.. هدموا الجدار وأخرجوا منه جثّة..! يعتقدون أنّها لوالدتي.. لقد اعترف (راضي) والد (صبا) بأنّه ساعد والدي على إخفاء الجثَّة في الجدار.. واعترف والدي بأنّه كان بحالةِ غضبٍ منها وقام بدفعها فارتطمت بحافة المنضدة وفُجَّ رأسها وسقطت وهي بحالة إغماء..

وذلك بعد أن اعترفتْ له والدتي بأنّني ابنه وأنّها كانت حامل منه حين طلبت الطلاق.. وتزوجت من عازف الإيقاع (سالم)..!"

بدا على راني الإرهاق الشديد.. فطلب منه (أنس) أن يرافقه إلى منزله ويبقى هذه الفترة في بيته بعيدًا عن ذلك المنزل والمقهى وتلك الذكريات..

وأخبرني والدي بمجريات التحقيق التي تابعها برغم نأيه بنفسه عنه لما يربطه من علاقة طيّبة بالسيّد (عادل) والد (راني).. أكملَ (راضي) -خلال التحقيق- اعترافه حين قال:

"بعد أن سقطت السيدة (سهى) أرضًا وسالت الدّماء من رأسها.. اعتقد السيد (عادل) أنّها قد فارقت الحياة.. فوجدتها فرصة سانحة لاستغلال هذا

الرجل الثريّ المغرور، ماديًّا .. وأكّدت له أنَّها حقًّا قد توفيت ووعدته بأنني سأتدبّر أمر الجثّة..

فذهب هو إلى المقهى لحضور حفل عيد ميلاد ابنه (راني).. وكانت السيّدة (سهى) تتأوّه.. فكتمتُ أنفاسها إلى أن فارقتْ روحها الحياة.. وبحثت عن جدار أستطيع دفنها به.. فلم أجد خيرًا من الجدار الخلفي لخزانة الحائط في غرفة ابنها (راني).. فنزعت الأخشاب عن الجدار ودفنتها به وقمتُ بتثبيتها بأربطة وأوتاد.. وأعدت الأخشاب كما كانت على الجدار.. وأخبرت السيد (عادل) بموضع الدفن.. واتفقنا على أجر شهريّ أتقاضاه منه ليبقى هذا الموضوع طيّ الكتمان.."

ترنيمة من الورقة الثالثة والثلاثين

مضى الوقت عصيبًا على (راني) أثناء سكناه في بيت (أنس) وهو في حالة اكتئاب.. لكن رؤيته لياسمين وأحاديثه معها قد منحه بعض ملامح السعادة..

لكنّ ابنة راضي (صبا) قد فرضت وجودها معنا بسبب وحدتها وحالتها النفسيّة.. ولم تخفِ تعلّقها بأنس كمنقذ لها من مأساة كانت تعيشها وحيدة.. والذي أصبح يمضي معظم وقته معها.

اعتبرتُ هذا الوقت، الجزء المفقود من حياتي.. ولكنّني كنتُ أحاولُ التماسك دائمًا كالعادة.. يشدُّ من أزري كبريائي.

أرسل لي ذات يوم رسالة اعتذار هاتفية، بسبب غيابه المتكرر عن جلساتنا وأحاديثنا.. واكتفى بكلمة في رسالته الخاصة بي حيث كتب:

"أحبّك"

ضممتُ هاتفي إلى صدري ومنعتُ دموعي من التحرّر.. ثمّ أرسلت له:

"أُصدّقك..!"

واشتدّ الحريق بدرجات حرارة طقس ذلك اليوم بينما كنت أقرأ رسالة (أنس) ويمتزج التعرق بالدموع:

"(سيلا) حبيبتي .. هل تؤمنين بوجود أيقونات لقديسين قدماء توارثتها الأجيال ونالت الخلود..؟

حبّك هو أيقونتي المقدَّسة الخاصّة التي لن تقوى امرأة في الوجود على احتلال مكانتها في قلبي ولن يبدّد البعد توهّجها في حياتي.. فلا أبعاد عميقة لما يحدث الآن، إنه معالجة لحالة إنسانيّة عابرة ستمضي بعيداً عن جنّة حبّنا.. وليس أكثر أو أقل من ذلك ثقي بي.."

كتبت له:

"كيف لا تأخذني أفكاري لأبعاد عميقة وموحشة لما يحدث.. وأنت تعلن صراحة أنكما معًا وهذا ما يحدث الآن..! ولم تفصح عن موعدٍ لانتهاء ما يحدث..!

كنتُ أعتقد أن للوقت معي مكانة مقدَّسة لديك ولست مجرّد أيقونة تعلقها على جدار خيالك..

يمرّ اليوم بتفاصيل عديدة كانت أزهارك تعطّرها وترويها عنايتك.. والآن يقضمُ أيّامي الإهمال بشراسة..!

لطالما أقسمتَ لي أنّ اليوم بلا تلاقينا عبارة عن دقائق ثقيلة الوقع على النفس، تعبرُ أرض الزمن بآثارها الجوفاء المقيتة..!"

وبدلا من الردّ على رسالتي.. جاء إلى بيتي واصطحب معه (صبا)
وكنت أرتشف قهوتي وأتجرع غصّاتي..!
تأمّلتني صبا بعمق.. وحدَّثها عنّي بما هو أعمق:
"إنّها (سيلا) حبيبتي.. تعقُّلي وجنوني.. موطني ومنفاي.. هي التي من أجلها أُخضع المستحيلات لئلّا تحرمني رؤيتها.. وأختلقُ المغامرات لأصغي إلى موسيقى ضحكاتها، وهي التي تعلّمتُ في حبّها المراوغة في إنكار مشاعري نحوها وادّعاء حبّ سواها لأحظى باعترافها في الحبّ، وباءت محاولاتي بالفشل.. لأنَّها لا تؤمن سوى بالحب المعلن الواضح وضوح الضياء.. فأشرق اعترافي أمامها راضخاً لحبّها الذي كان ينتظر بوحي الصريح المباشر ليضوع عطراً ويأتلق نوراً تزهو به أيّامي ما حييت.."
قالت (صبا):
"أتمنّى لكما السعادة.."
ثمّ كانت المفاجأة المذهلة التي أدهشتني حقًّا.. حين أكملت (صبا) كلامها:
"(أنس) أخي الذي لم تلده أمّي.. لكنني أمرُّ بمرحلة عصيبة.. وأعتذر لأنني كنتُ السبب في تباعدكما هذه الأيّام.. أنا أحبُّ السيد (عادل) ولم أحبّ شخصًا سواه..!"

وأجهشت بالبكاء..!

وبدون انتباه ارتفعت نبرة صوتي:

"السيد (عادل) والد (راني)..؟!

حركت رأسها إيجابًا واستحثَّ نشيجها عاطفتي.. فسارعت لاحتضانها.. وكدت أضحك حين لمحت (أنس) يضحك بصمت..

وقلت في خلدي:

"يا لك من ساخر..! أين إنسانيّتك؟!.. صدقت (ياسمين)حقًّا حين وصفتك بالماكر..!"

ثمّ سألتها:

"وهل يعلم السيد (عادل) بشعورك نحوه..؟!

أجابت:

"نعم يعلم وهو يحبّني جدًّا ويجدني أشبه والدتي في شبابها.."

تابعتُ أسئلتي:

"وما رأيك بما عرفناه عن اختفاء السيدة (سهى)و...؟"

بدا عليها الارتباك.. ثم أجابت:

"لقد أحبّ السيّدة (سهى).. وعلمنا من خلال التحقيق أنه ليس مذنبًا في القتل.. كان شجاره معها عاديًّا.. لكنَّ طلبه للمساعدة من والدي هو الذي حوّل ما حدث لجريمة.. وهو يدرك تمامًا أنّ تفرّعات درب والدي مريبة كلّها.. وأنَّه غير جدير بالأبوَّة أو الأخوَّة والصداقة.. ومكانه المناسب هو السجن.. وهذا ما حصل حقًّا، لقد خرج السيد (عادل) من السجن لأنّ العقوبة قد سقطت عن الجرم مع تقادم الزمن.. لكن والدي قد بقي في السجن بسبب مشاكل أخرى عديدة وحديثة العهد كالتعاطي والإتجار بالمخدرات.."

شعرتُ بالتعاطف الحقيقي معها.. تبدو بريئة وصادقة حقاً.. حتى في الحبّ تبدو لي كذلك.. السيد (عادل) بعمر والدها وابنه (راني) يمقتها جدًا.. والآن أدركتُ سبب مقته لها..!

ترنيمة من الورقة الرابعة والثلاثين

(راني) -المقيم في بيت (أنس) برغم عودة والده للبيت- بدا في تعلّقه بياسمين بحالة من الحب والهروب من حقيقة جريمة اختفاء والدته التي اكتشفها رجال الشرطة في بيته.. كثرت مواعيدهما الثنائيّة.. وبدت (ياسمين) في غاية السعادة حين وصفت ما يعتريها من شعور:

"حين تسرّح النسائم شعري.. أصغي لهمساته تبوح بها الرياح، يدنو الوقت المباح من نهايته في موعدنا ، فأُسدلُ ستارة من التمرّد تطيل هُنيهات الزمن قليلًا، ويبدأ الدَّهر في ترجمة مفردات الحبّ والسلام لي من جديد.. وألمحُ تجليات حالة من رؤى الأحلام تغمرنا معًا في بيئة شاعريّة كمعزوفة كمان تشدو بتراتيل الأمان لإحساسي بالسعادة.."

نثرت كلماتها على مسمعي ثمَّ حذرتني بشدّة من التأخّر لأنَّها تعلم كم أمقت مواعيد الليل:

"سيلا تأخّرك أو غيابك يعدّ اعترافًا صريحًا بالاستخفاف بحياة (راني) وسعادته.. الموعد تجاوزًا هذه المرّة -اعذرينا حبيبتي- سيكون في الليل في تمام الساعة الثامنة وسنلتقي نحن الأربعة و(زينة) أيضًا في مكتبتي لمناقشة موضوع قرار السيد (عادل) بالزواج من تلك الشابة (صبا) ابنة (راضي).."

وعدتها أنني لن أتأخر:

"من أجل حبّكما العظيم الذي يعبثُ بألوان الفضاء حولي ويجعلُ الوجود بهيًّا رقيقًا مرهفًا في نظري.. أعدكِ أنني سأرضخ لموعدكما الليلي..! وسأكون على الموعد تمامًا.."

حرصتُ على عدم التأخر في ذلك اليوم وحاولتُ ألّا اذهب بمفردي لأنني أحبُّ رفقاء الطريق ولاسيما في الليل.. اعتذر (أنس) عن مرافقتي لوجود بعض الأعمال لديه بالقرب من موقع المكتبة وحين انتهاء أعماله سيكون الموعد قد حان.. و(زينة) مشغولة دائمًا بابنها ستؤمّن له الوضع الآمن وسوف تلحق بنا.. أمّا (راني) فلم أستطع محادثته سوى قبل الموعد بقليل حيث قال:

"أعتذر سيلا لاحظت اتصالاتك كنت نائمًا سأستحم وأوافيك لنذهب معًا.."

ترنيمة من الورقة الخامسة والثلاثين

فردت الشمس وشاحها الوردي على السحب المتناثرة بفوضوية تمنح السماء سحرًا أخّاذًا.. بينما كانت تلملم أشعّتها لتغرب عن فضاء عالمنا تاركة بقايا يومنا لشلوح أطياف الظلام..

وصلتُ برفقة راني إلى (مكتبة الياسمين) في تمام الساعة الثامنة ويا لهول ما شاهدناه..!

كان المكان يغصّ برجال الشرطة وعلى النقالة جثة حبيبتنا (ياسمين).. أما المتّهم المحاط برجال الشرطة من جوانبه كلّها فكان... (أنس)..!

ضجَّ المكان بصراخنا ونحيبنا (راني) وأنا..!

بكى (راني) كطفل صغير فقد لتوّه والدته.. وركض كالأطفال خلف العربة التي أقلّت جثمان (ياسمين) وهو يُجهش بالنحيب..

وأنا بكيتهما معًا. المتَّهم والضحيَّة..!

وأطلّ الذهول والدمع وملامح الكارثة من وجه (أنس).. المتَّهم بقتل (ياسمين) كرّرها فكري مرارًا بذهول..!

"(أنس) هو المتّهم بقتل (ياسمين)..!"

وصلت زينة وشاركتنا الصدمة المزدوجة للفاجعة..!

شعرتْ (زينة) أنَّ (كريم) يفارق الحياة من جديد.. صرختْ يعتصرها الألم:

"(ياسمين)..!..

(أنس)..!..

(كريم)..!..

لن ترحلوا وينقضي العمر هكذا... لن ترحلوا..!

(ياسمين) يا زهرة المدينة و الكتب يا عطر الكلمات.. (كريم) برحيلك لا قيمة للحياة.. سأقفل أبواب القلب والذاكرة والرّوح عليكم وأمنعكم من الرحيل..!

أأنس هو القاتل.. ؟!..

(أنس) الذي روى قصة موت (كريم)..! أهو القاتل..؟!"

وأُجهشت بالبكاء..

واستمرت إلى صباح اليوم التالي وهي تصف (أنس) بالمجرم القاتل وقالت:

"قصة موت (كريم) حين يرويها لنا قاتل فهي حتماً كاذبة.. لن يقنعنا المجرم بأكاذيبه..!"

أيّدها (راني) قائلًا:

"قاتل (ياسمين) لا يحق له الحياة..

من يقتل مرّة.. يسهل عليه القتل آلاف المرّات.. وإن لم يصدر بحقه حكم الإعدام، سأقتله بنفسي..!..".

وحدي أنا من توغل إلى نظرات (أنس) وأدرك مأساته وشاهد براءته وآمن بها.. قلتُ بتأثّر وبلهجة عاتبة:

"على ما يبدو قد أضحى (أنس) الشاة التي وقعت أمامكما..!

لا أحد أحبَّ (ياسمين) بقدر ما أحببتها.. إنّها أختي وقلبي يبكيها قهرًا وجنونًا.. ولكن أرجوكما كُفّا عن نعت (أنس) بالقاتل.. إلى هذه اللحظة (أنس) هو المتَّهم لا أكثر..!

أعدكِ يا (زينة) بأنَّني لن يغمض لي جفن قبل التحقُّق ممّا جرى بين (كريم) و(أنس) قبل استشهاد (كريم).. وسنذهب معًا لنستمع إلى (دريد) و(فهد).. إذا قالوا أنَّ (أنس) كان متخاذلاً وقد تخلَّ عن (كريم) في الحرب، أعدكِ بأنني سأشاركِ الحكم عليه أنتِ و(راني) وسأنبذه معكما بأقذر الألفاظ.. وإلى ذلك الحين، (أنس) هو المتَّهم البريء في نظري.."

ترنيمة من الورقة السادسة والثلاثين

(دُريد) الذي أصيب إصابة بالغة في الحرب وقد روى لنا أنس قصة جراحه التي منعته من السير على قدميه.. وفتح متجرًا صغيرًا في قريته ليعتاش منه.. وصلنا إليه أولًا وكانت إجابته:

"(أنس) البطل، روحي فداه.. لقد أنقذنا جميعًا برغم جراحه النازفة..

أمّا (كريم) صديقنا النقي فلم يرضخ للتوسلات(أنس) الذي رغب بإنقاذه أولًا بسبب النزيف الذي تعدَّدت مواضعه في جسده.. ولكنه أصرَّ على (أنس) بالإسراع في إنقاذي بسبب قدمي المكسورة من الفخذ.. لروحه الرحمة ذلك الشهيد القدّيس.."

اكتفتْ (زينة) بشهادة (دريد) واعتذرت.. لكنَّني أصرّيت على زيارة (فهد) ذلك الجريح الذي أنقذه (أنس) أيضًا في ذلك الوقت والذي بُترت يده وقدمه.. ويعمل في متجر لأحد أقاربه في المدينة.. وصلنا إليه في الوقت المناسب وكان يرتشف قهوته في فترة ما بعد استراحة الظهيرة.. وقد تخللت الدموع عبارات إجابته:

"اعذروا دموعي.. لقد أعادتني أسئلتكم إلى زمن الفواجع والغصّات.. كان (كريم) من أطهر وأنبل من عرفت بحياتي.. و(أنس) ذلك الرجل المغوار الذي لم أعرف بنبل أخلاقه وشهامته أحد.. لقد تجاهل ألمه لينقذنا ويخفّف

آلامنا.. وكان (كريم) صديقه المقرّب، ألحّ عليه محاولاً إقناعه بقبول إنقاذه أولاً.. لكنَّه أبى برغم نزيفه الكبير حين شاهد يدي الملتوية وقدمي المتآكلة.. الرّحمة لروح (كريم) النقيّة.. وأعزّ الله (أنس) وأكرَمه في الدنيا والآخرة.. إنَّه الإنسان الطيَّب والشجاع البطل.."

تأمّلتُ ملامح زينة و (راني) بعمق في طريق عودتنا وكان الصمت الواجمُ سيّد الموقف.. وحين عدنا إلى منزلي كان والدي بانتظارنا..

ثمّ تمّ التحقيق معنا جميعًا..

ولم يمض الوقت الطويل لاستكشاف الحقيقة.. التي كانت مرارتها علقمًا في أفواه دهشتنا وصدمتنا وذهولنا..!

تمّ إعلان براءة (أنس)..

وألقى رجال الشرطة القبض على قاتل (ياسمين) الذي لم يخبرني والدي من هو إلى أن التقيت بأنس وعرفت منه..

ترنيمة من الورقة السابعة والثلاثين

حدثني أنس بصوت أبحّ كسير يغمره الأسى:

"كنت أشارك تلك الفتاة البائسة (صبا) احتفالها البسيط بعيد ميلادها.. الذي وعدتها أنَّني سأقيمه لها وقامت بدعوة بعض أصحابها من الفتيات والشبان في الجامعة.. وفي توقيت موعدنا مع (ياسمين) اعتذرتُ منهم وغادرتُ المكان متوجهاً إلى موعدنا في (مكتبة الياسمين)..

كان باب المكتبة مشرعًا، ولجتُ إلى مكان جلساتنا في مستودع الكتب.. وإذ بياسمين مضرّجة بالدماء.. مطعونة طعنات عدَّة في مواضع متفرقة من جسدها والسكين مغروسة في قلبها.. أسرعت بنزع السكين عن صدرها.. واتصلت بالشرطة..

بداية نظروا إليَّ نظرة اتّهام.. لوجود بصماتي على السكين..

ثم لاحظوا أنَّ أظافرها محشوَّة بجلد وشعر من قام بقتلها، ويخلو جسدي من أيّ خدش..

وبعد التحقيق وتحليل الطبّ الشرعي الدقيق، تبين معهم من هو الشخص الذي قامت ياسمين بخدشه وهي تقاوم طعناته الهمجيَّة.....!"

وصمتَ (أنس) بعد أن باغتته حالة من البكاء الحارق..

ناشدته أن يُكمل.. فما هذا التكتّم..؟! رجوته..!:

"أخبرني من يكون ذلك الحيوان الشرس الذي قام بقتل ياسمينتنا أتوسل إليك (أنس).. كفّ عن البكاء..! أريد معرفة الحقيقة..!"

قال بهدوء انفعالي عميق:

"(راني).. "

سألته بدهشه:

"ما به (راني)..؟! هل يعرف من هو القاتل..؟!"

قال:

"(راني) مريض يا (سيلا).. لديه حالة فصامية نفسية.. هو من قام بقتلها.. ! يا للجنون..!

ولا يدري أنَّه هو القاتل لا يدري..!

تحدّث الطبيب عن الحقد الخفي في اللاشعور (راني) من حيث لا يشعر يكره ويرفض بشدّة أن تأخذ الحبيبة (ياسمين) مكانة أمّه في قلبه وحياته.. وتشكّل حياتها التهديد الكبير لتلك الحالة الخاصّة التي يعيشها مع أمّه..!

ارتكبَ جريمته في تمام الخامسة والنصف وهو بشخصيته المريضة وذهب إلى المنزل استحمَّ، ونامَ كعادته في مثل هذا الوقت.. وحين استيقظ كأنَّ شيئًا لم يكن، عاد لشخصية (راني) التي نعرفها.. وذهب معك إلى الموعد

المتّفق مع (ياسمين) وأذهله المصاب الأليم وبكى بقهر وحرقة.. واتَّهمني كما اتَّهمني الجميع.. لكنَّهم أدركوا حقيقة براءتي، إلَّا (راني) لم يزل يهجم نحوي ويجنُّ جنونه حين يراني لاعتقاده بأنَّني ذلك المجرم الذي حرمه من حبيبته أو ربّما أمّه... لا أعلم..!

تمَّ وضعه في مصحة للأمراض النفسية.. وحين قمتُ بزيارته هاجمني بشراسة.. ثم راح يبكي

وكانت العمّة (رويدة) -التي جاء بها من مهجرها خبر الكارثة- تحتضنه كطفل صغير وتبكي بمرارة.."

حجبَ ضباب الدموع رؤيتي.. وأطبقت الصدمة أبواب الفضاء على صدري ودار الوجود بي..!

اجتاحني فيض الألم، وتخبّطت أفكاري.. ومضى من الزمن شهور عدّة.. والدوار يلفّ بنا كلما نسمت رياح الذكريات الماضية..

فاجأني (أنس) مؤخرًا بحديث تكسوه الغرابة:

"في لحظات الوحدة بتُّ أعاني من العتمة الحالكة.. حين يأفلُ المغيب وتنسحبُ من السماء ألوانه الورديّة.. حيث تتأرجح شلوح الظلام فوق

المدينة متجمّعة بتلاحمٍ يسدُّ منافذ الضياء.. أرى نفسي أهرول لاهثًا على دربي، خشية التأخُّر على موعدنا..!

أدخل المكتبة المشرعة الباب.. أتوغل إلى الدّاخل حيث وجدتها مستلقية على بركة من الدماء.. أدنو منها أُخرج السكين من صدرها وألقي بها جانبًا.. فتستيقظ (ياسمين) ويزول أثر الدّماء عنها وعن الأرض.. ثمَّ تبتسم ببراءة وتسألني عنكم فردًا فردًا..

أحدّقُ بها جيّدًا لأتحقَّق ممّا أرى.. أجدني أمام نافذة الليل أتأمّل ظلي في الزجاج..!

وتكرّرت رؤيتي تلك لمرّات عديدة..

وعدتكِ ذات يوم بأنَّني وبرغم عشقي للّيل، لن أهابه إلّا إذا أرغمني على مهابته.. وها هي حلكته تتربص بأفكاري وتشدني من ياقتي وتلوي عنقي، لتخضعني لمخاوف الظلام..!

والآن أعلنُ لكِ (سيلا)..

نحتاج معاً إلى من يشفينا من رُهاب الليل..".

وأنا بدوري أعلن لكَ (أنس)..

إنَّ من يُصرّ على عدم مغادرة الجراح لن يقوى على البناء كما يقوى على الهدم..

لقد ارتجّت دهاليز ذاكرتنا إثر خبط أقدام الليل المثقل بالمواجع وأبعادها المتوغلة عميقاً في وجداننا.. هي التي علينا الحذر من صدى صرخاتها الهائمة في عتمة أرواحنا المتعبة.. ويجب ألّا نكفّ عن محاولة الشفاء منها لبناء حياة من هم حولنا وينظرون إلينا كقدوة لهم..!

تأمّلني بصمت ثمّ قال:

"يا له من ليل(شكسبيريّ)..!".

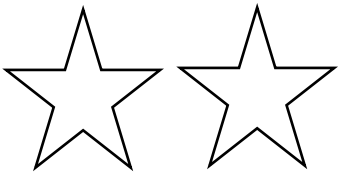

تمت بحمد اللّه

ليل شكسبيري
رواية
هدى إبراهيم أمون

الطبعة الأولى
1442 هـ 2020 م

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد

جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com